هشام زكريا

قَواقِع الماضي

مجموعة قصصية

إصدارات دائرة الثقافة، حكومة الشارقة 2025 م

الفهـرس

1- الدّيـدريـة.....3

2- الســاعة 25.....10

3-القميـص الأصفـر.....18

4-تسـاؤلات الكـوشي.....25

5- حدائـق الكـرز.....31

6-ذاكـرة الـدرويش.....38

7-ظـلام يلتـهم المصابيـح.....43

8-قـواقـع المـاضي.....50

9- لالـوقــا.....57

-1-

الدّيدرية

في بدايات القرن الماضي كانت(الديدرية)، القرية الصغيرة عند ملتقى النّهرين، على موعد جديدٍ مع تحول اجتماعي واقتصادي، فقد أعلنت السلطات تأسيس رئاسة السّكة الحديدية في هذا المكان. ويبدو أن اختيار المحتل الإنجليزيّ لهذه القرية قد دعمته معايير متعددةٌ، فالموقع يتوسط البلاد، بالإضافة إلى الأرض الخصبة، وتوافر المياه من النهرين، والقرب من الميناء البحري. وكان على رأس هذه القرية العمدة (محمد الكبير) رجلٌ ستينيٌ حاد الذكاء، فارع الطول، خفيف اللحية، اشتهر بالشجاعة والفراسة والمواجهة. أدرك الإنجليزُ الذين كانوا يستعمرون البلاد سطوته الاجتماعية على سكان القرية فكانوا يتقربون إليه، وأشركوه في مشاريع التنمية، ونُقل موقع إدارة السكك الحديدية إلى منطقته.

بحكمته استطاع أن يستوعب هجرات كثيرةٍ جاءت من كافة أنحاء القطر، سكنوا أولاً معه في القرية، ثم توسّعوا في الأراضي الأخرى حتى تحولت (الديدرية) إلى مدينة كبيرة ذات خصائص مدنية، فتراجعت القبيلة وبرزت مظاهر التحضّر، حتى أصبح الانتماء للمكان هو الإحساس القابع في نفوس سكّان المدينة، وعشْق سكّانها لها أصبح شعوراً لافتاً، فأغلبهم عمّال في سكة الحديد. طغت ثقافة المدينة على كل شيء، وتشابه الملبس والمسكن، وتقارب المستوى الاقتصادي على ضفاف النيل، وفي مكان مجاور للقرية الأصل قام الإنجليز بتأسيس (الحي البريطاني) وجعلوه تحفةً معماريةً على شكل العلم الإنجليزي، يتكون من مساكن فسيحة ذات حدائق خضراء بعضها تزينه (الجملونات) الحمراء والبعض الآخر في شكل قباب أنيقةٍ، وفي الحدائق الداخلية لهذه المنازل ميادين خضراءُ وزهور ضاجةُ الوسامة، وشتى أنواع أشجار الفواكه. والمتجوّل في هذا الحي يستمتع بشذى الياسمين ونفحات الزهور الفواحة. كان من الصعب على الأهالي المحليين من غير كبار الموظّفين العبور بهذا الحي الجديد، لأنه مسموح فقط للعمدة (محمد الكبير) ومن يرافقه التجول في هذا المكان. وقد ظل منظره بحصانه الأسود وقفطانه المميزِ وتقاطيع وجهه الصارمة ولحيته الدائرية البيضاء محط إعجاب الإنجليز، إضافة إلى معرفتهم بعلاقته الخاصة مع مدير المديرية وكبار مسؤولي الإنجليز والوطنيين، فلا يستطيع أحد من الإنجليز القاطنين في هذا الحي ممارسة أي سلطة عليه، وما كانت سطوته تقل عن أي مسؤول بريطاني.

قطن هذا الحي كبار الموظفين بالسكة الحديد وقادة الخدمة المدنية بالمنطقة من الإنجليز والأقباط والشوام وبعض الوطنيين. وسكن في المنزل رقم (55) رجلٌ نادرُ الطباع، كثير الصمت، هادئ المشيةِ، عمل باكراً في هذه الهيئة وتعلم من الإنجليز لغةً رفيعةً أهّلته لترجمة لوائح السكة الحديد إلى العربية. كان يحبّ الإنجليز ويكره المحتل، رغم منصبه الرفيع فإن الأستاذ (بشير الفاضل) لم تكن له سيارة وسائق، فكان يذهب إلى العمل راجلاً في تواضع جم ببنطلونه الأزرق وقميصه الأبيض وحذائه الأسود الصقيل الذي يخضعه يومياً لعمليات التلميع، عندما وصل (بشير الفاضل) إلى سنّ التقاعد عن العمل أخذ جزءاً من أموال معاشه وصان به منزله القديم وسط المدينة. وحين غاب عن الحيّ ترك وراءه سيرة عظيمة للموظف المتفاني الذي وهب حياته للخدمة المدنية في أعمق صورها. وقد ظل يأتي في فتراتٍ متباعدةٍ لممارسة رياضة(الجولف) التي تقع ميادينها في الجزء الشرقي للحي، فهي فرصة أيضاً للالتقاء بزملائه الإنجليز والأقباط والشوام وبعض كبار الموظفين من السودانيين، ومبادلة (القفشات) مع ذلك الدرويش سكّر وفاكهة (الجولف) مختار جاد كريم، الرجل الأربعينيّ الذي يعمل في مهمة جمع كرات (الجولف) التي تذهب بعيداً وإعادتها مقابل أجر يومي من اللاعبين. لا نستطيع أن نصنف(مختار) أنه من ذوي الإعاقة العقلية، ولا يمكن وصفه بأنه ناضج التفكير، فهو من ناحية الشكل كامل الهندام يهتم بالنظافة وله دراجة هوائية في غاية الأناقة يغسلها يومياً، لكنه كان يظن أنه ما يزال طفلاً صغيراً، على الرغم من أن الكثير من أبناء (الديديرية) تزوجوا في عمر أصغر منه وأنجبوا، غير أنه ظل يعتقد جازماً أنه في عمر أبنائهم. كانت (الديدرية) هي كل حدود خياله بأحداثها وشخوصها، فهو لم يغادرها قط، واستقر في تفكيره أن (الديدرية) والإنجليز والأقباط والشوام هم حدود الكون. كان العمدة (محمد الكبير) شديد الحب لـ(مختار) ويسأل عنه في مجالسه أين (مختار) المبروك؟ فهو يعتقد أنه أحد أسباب البركة للقرية، وهو الوحيد الذي كان يسمح له بالجلوس إلى جانب العمدة في الأريكة الأنيقة أمام منزله، فقد كانت له مهمة أخرى وهي الاعتناء بحصان العمدة وجلب الماء والعلف له.

في وسط (الحي البريطاني) المجاور (للديدرية) اتخذ الصغار وطلبة المراحل المتوسطة والثانوية في هذا الحي شجرةً وريفةً للملتقى واللعب وممارسة شقاوة المراهقين، ظلوا في كل يوم يدبرون مقلباً ومكيدة في حارس المكتبة التي كانت بقايا (كنيسة) قديمة، وفي ركن من المكتبة اتخذ مواطنو الحي مكاناً صغيراً للصلاة، ولسماحة الناس سموا هذا المكان (جامع الكنيسة). ظلّ أمر (الحارس) مثيراً للفتيان فهم لا يعرفون له أهلاً ونادراً ما يزوره أحد، لكنه كان يختفي فترة ثم يعود، لو رأيت (الحارس) من بعيد تحسبه بدوياً خالصاً، يرتدي السروال

و(العراقي) السوداني، وعادة لا يضع (طاقية) على رأسه كما يفعل الناس هنا، له طول ملفتٌ، وهدوء عميقٌ. اكتشف الصّغار أن له صوتاً غنائياً مميزاً، ويحفظ أجزاءً كثيرة من القرآن الكريم، وتعلم القراءة والكتابة في (المسيد)، ثم بعد ذلك قرأ معظم الكتب في المكتبة، فقد كان يجيد اللغة الإنجليزية تماماً كإجادته للغة العربية، وعلاقة (الحَرّاس) بمراهقي الحي علاقة مغامرةٍ وشغبٍ، فدائماً ما يذهبون إلى باب المكتبة ويقلّدون صوته بطريقة مستفزة، فيغضب لذلك ويطلق عبارات الشتم بل يطاردهم في كثير من الأحيان ويشكوهم إلى أهليهم، أما علاقته مع أبناء الحي من الطلبة الجامعيين فقد كانت أقرب إلى الصداقة، فهو الدليل إلى الكتب والمراجع العربية والإنجليزية يحفظها جميعاً ويعرف قصة وتاريخ ومضمون كل كتابٍ. لا يعرف له أحد اسماً غير(الحرّاس). في أحد أيام الشتاء حلّ ضيفاً لأول مرة على (الحرّاس)، رجل فارع الطول يشبهه كأنه نسخة منه، يرتدى البدلة الإفرنجية ورباط عنق أحمر وتبدو عليه آثار النعمة والدعة والراحة. سكن في الفندق الإنجليزي الأثري القديم في الحي المجاور للمكتبة، وهو تحفة بريطانية خالدةٌ، يتكون من طابقين، تحيط به عرائش الزهور والميادين الخضراء وشجر(العشر) الضخم من كل الأرجاء، حتى يخُيل لك أنه جوهرةٌ ذهبيةٌ مرمية في غابة نسيقة. إنه الشقيق الأصغر للحرّاس، يعمل في منظمة ثقافية كبيرة مقرها (نيويورك). كان الحرّاس يحكي للطلبة الجامعيين عنه كثيراً، ظل يباهي أنه منذ سنوات زار أمريكا بدعوة من شقيقه، كانت زيارة (الحرّاس) بالنسبة للصغار في الحي واحدة من الأساطير، وبالنسبة للطلبة الجامعيين كانت عبارةً عن قصص ربما استوحاها من الكتب التي ظلّت مركز اهتمامه في منامه وصحوه. لكن زيارة شقيقه أكدت ذلك؛ خاصة عندما حكى الضيف عن إصرار (الحرّاس) أن يتجول في شوارع نيويورك بذات الهيئة، (السروال) و(العراقي) السوداني وعرض صوراً لبعض الأمريكان معه بهذا الزي، وقد طبعت هذه الزيارة صورة جديدة للحرّاس ما كان للصغار أن يتخيلوها.

في أحد الأيام الحزينة على الحي أعلنت السلطات إغلاق المكتبة دون سبب واضح، انسحب (الحرّاس) بهدوء وغاب وسط المدينة الجديدة، لم يعد ولا حتى زيارة واحدة، وأصبحت حكاياته وقفشاته ومطارداته للصغار قصصاً في معرض التاريخ. اختفى تماماً مثل (بشير الفاضل) وما عاد الشباب يشاهدونه حيث اعتادوا تحت شجرتهم وسط الحي.

ظلّت الشجرة التي يتجمع تحتها صغار وشباب الحي برجاً للمراقبة لكل داخل وخارج، أنشأَ بعض سكان الحي معهم صداقة وأنساً، وكان البعض الآخر يلقي عليهم المواعظَ ثم يذهب.

ومن الذين تغلغلوا في حياة أبناء الشجرة الأستاذ (أبوعلي أوهاج)، مدير الإدارة الكبيرة بالسكك الحديدية وأحد المعتنقين للفكر الماركسي، كان في منتصف الخمسينيات من عمره، شعره مليءٌ بالشيب ومنسدلٌ دون اهتمام، على عكس سكان الحي، لا يأبه بالتأنّق ولبس البدلة ورباط العنق، ملتزمٌ بالقميص والبنطلون الأبيض حتى تعتقد أنه يعمل ممرضاً في المستشفى. كان سكّان الحي يدخلون بأكياسٍ من السلع والفواكه والخضروات، لكن الأستاذ (أبوعلي أوهاج) لا تجد في يديه غير الكتب والصحف والمجلات ونشرة السكّة الحديد اليومية، فبعد الانتهاء من قراءتها يهديها لتجمّع أبناء الشجرة، صنع منهم محبّين للقراءة ولكنها قراءة موجهة نحو الفكر الاشتراكي. وظلّ معجباً بهذا التجمع للصغار والمراهقين والشباب ويقول لهم إن الحكومات القادمة لا بد أن تتشكل منكم. وقد نظّم ليلة شعرية في مرة من المرات لأبناء الحي بالفندق الأثري القديم، وقدّم جوائز من ماله الخاص، اختار بعض الشباب ممن لهم مهارات القيادة وأصبح يعطيهم كتباً خاصة، كأنه يدربهم على مهام كبيرة. انتخبه العمال والموظفون في السكة الحديد رئيساً للنقابة، لم يدم في الحي كثيراً فقد اختارته مؤسسة كبيرةٌ للعمل خارج البلاد، خرج (أبوعلي أوهاج) من الحي البريطاني ولم يعد، وترك بقايا كتبٍ أهداها للصغار ومشاريع لم تكتمل، وطلبة معجبون بسلوكه وهندامه وقميصه وبنطلونه الأبيض، ذهب كما رحل من قبل (بشير الفاضل) و(الحرّاس) دون عودة لهذا المكان الجميل الأخضر روحاً وأرضاً.

بلونه القمحي ولهجته السودانية الضاربة في القدم، وبنطلونه المتأنق في خصره، وقميصه اللطيف ذي الأكمام القصيرة، وهندامه المعهود، تجده يومياً وسط سوق المدينة الكبير، ومن قبل كان أحد سكان (الديدرية) قد جاء من الهند وأنشأ محلاً صغيراً على حائط منزل العمدة (محمد الكبير) جوار النيل، لكن تجارته سرعان ما تطورت وأصبح أحد معالم المدينة الجديدة، بعد تزايد الهجرات إليها، وهكذا فقد انتقل إلى مكانٍ وسط السوق الجديد.

كان منظر السيد (أكاشي) الهندي، وأسرته التي تتكون من بناته الأربع وزوجته؛ غريباً على أهالي (الديدرية)، وحتى على أبناء الشجرة بالحي البريطاني الذين يُوصفون في المدينة بأنهم من الطبقة البرجوازية، وكان منظر الفتيات الأنيقات بشعرهن الأسود الطويل المنسدل يثير عند الأهالي الفضول والدهشة، ظل (أكاشي) الهندي يجلب أروع أنواع القماش وأحسن معدات الخياطة. ربما حضر (أكاشي) الهندي إلى (الديدرية) مع مجموعة من الهنود بعد الحرب العالمية الثانية، وغادر منهم من غادر، لكنه بقي في المدينة الجديدة، وقد آثر الرجوع إلى الهند بعد وفاة زوجته وزواج بناته. كانت هناك علاقة خاصة بين السيد (أكاشي) الهندي والعمدة

(محمد الكبير) وأهالي (الديدرية)، يحضر (الصدقات) و(يرفع الفاتحة) ويدفع في (الكشف)، مارس السودانية حتى النخاع. وله قدرة كبيرة في الاحتفاظ بالوثائق فلديه كشوفات قديمة منذ الستينيات فيها أسعار بعض الأقمشة وأسماء من يوزّعون له البضاعة في القرى والأرياف. و(أكاشي) الهندي من أكثر الناس معرفة بتاريخ (الديدرية) حيث مكّنه جلوسه مع العمدة (محمد الكبير) من معرفة الكثير عن المنطقة. وعندما أراد أحد المخرجين الإنجليز كتابة سيناريو عن فيلم يحكي سيرة العمدة (محمد الكبير) اندهش من كثافة المعلومات المدونة في ذهن وذاكرة(أكاشي) الهندي عنه.

مثّل السيد (أكاشي) معاني التسامح الديني والتعايش في المدينة الجديدة، كان يساهم بإنسانيته المتدفقة في النفير ويهرع للمحتاج، وطيلة عمله بدكّانه لمدة نصف قرنٍ من الزمان لم يبع (كفناً) في متجره، بل كان يوزّعها بالمجان ويستحي أن يتربح من عائد أكفان الموتى، ولم تنقطع عطاياه السنوية عن (مختار)، (والحارس) وأمثالهما من أرقى أنواع الأقمشة التي كانت تأتيه من الهند، عاد (أكاشي) إلى بلاده وغاب كما اختفى (بشير الفاضل) و(الحارس) و(أبوعلي أوهاج).

في المنزل المطل على النيل قبالة مسبح (الحي البريطاني) تسكن ديانا (أودجرز) مع والدها المهندس روبرت (أودجرز)، وهي فتاة بريطانية في العشرين من عمرها في ذلك الوقت، طالبة صغيرة السّن تقطن في منزل يتكون من طابقٍ واحدٍ تحيط به حديقة أنيقة ويوجد على جانبها الجنوبيّ ميدانُ(نجيلة) ينحدر إلى النيل مباشرة، وكان عمّال الحدائق السودانيون يستمتعون بغمره بالماء مرة في الأسبوع ولذلك ظل كل شيء مخضراً بصفة مستديمة، والجمال طاغٍ على كل شيء. ظلّ أبناء الإنجليز يخرجون عند العصر للرياضة والسباحة ومع غروب الشمس يجلسون لتناول الشاي في الحدائق الداخلية لمنازلهم على طاولاتٍ صغيرةٍ أنيقةٍ، ويزاولون في بعض الأحيان رياضة التجديف ويعبرون بالزورق إلى الجزيرة النيلية ويصطادون طيورَ(القطا)، حيث اصطادت (ديانا) في إحدى المرات ثلاثين زوجاً، مما جعل أبناء الحي البريطاني من رواد الشجرة يترصدون حركة (ديانا)، كانت عندهم الحورية التي نزلت من السماء، فأصبحوا يعاونون (مختار) في جلب كرات (الجولف) من أجل مشاهدتها بزيّها الرياضي وشعرها الأشقر وقوامها الممشوق الجميل ولونها الأوربيّ الأخاذ وهي تمارس لعبة (الغولف). مثلت (ديانا) رمزية الجمال أيضاً عند شعراء (الديدرية) فأنشدوا فيها قصائد رائعة وأغاني خلدتها الأجيال، وقد مكثَ والدها سنواتٍ عقب الاستقلال بغرض إنجاز بعض مهام

التسليم للوطنيين، ثم عادت إلى بريطانيا وغابت عن الحي كما غاب من قبل (بشير الفاضل) و(الحارس) و(عبد الله أوهاج) و(أكاشي الهندي).

كان مركز الإطفاء الوحيد بالمدينة الجديدة يقع على الشمال الشرقي للحي البريطاني، على رأسه العقيد (داؤود عنجر) من (جبال النوبة)، عمل زمناً مع الإنجليز فأتقن لغتهم كأنه بريطاني، لكنّه بقي محتفظاً بلغته المحلية ويتحدث العربية بلهجة خاصة به فقط. رجلٌ في منتصف الخمسينيات من عمره، رياضيٌ متمكّن، يرأس إدارة مسبح الحي، وتجده باكراً يمارس رياضة الركض والمشي على طرق الحي دائمة الخضرة. كان عصبياً متقلّب المزاج، لكنه طيب القلب، كوّن فريقاً كبيراً لكرة القدم من جنود المطافئ، وظل يلعب معهم، لكنهم حذرون عند تمرير الكرة له أو تجاهله في الميدان، مارس سلطته العسكرية حتى أثناء اللعب. في إحدى المرات دعا أبناء الشجرة بالحي البريطاني لمنزله للتشاور في تكوين فريق للسباحة، أجلسهم في غرفة كبيرة داخل منزله المحاط بالحدائق القريب من جنوب (الديدرية)، لاحظ أبناء الشجرة أن جدران الغرفة الكبيرة المستطيلة مزيّنة بالشعارات والأنواط وشهادات التكريم، معظمها تعكس إنجازات رياضية، وكلّها تعبّر عن أماكن متعددة في البلاد عمل بها العقيد (عنجر)، أجلسهم بالصالون الكبير وبدا مزهواً وأبناء الشجرة يطالعون إنجازاته الموثقة في الجدران والمكتبة الكبيرة الخالية من الكتب والمليئة بشهادات التكريم. ومن على النافذة شاهد المجتمعون الصغار ابنه الكبير وهو صديقهم يقف وقفة عقاب عسكرية تحت الشمس في ميدان المنزل، ولم يشارك معهم في الجلسة، قال لهم العقيد (عنجر) هذا عقابٌ عسكريٌ لصديقكم يُسمى (إدارة داخلية)، قررتُ أن يقف ساعة تحت الشمس دون حراك لأنه أتى أمس متأخراً في الليل وتجاوز الزمن الممنوح له. كان ذلك أول وآخر اجتماع معه، فقد أصدر أوامر وتعليمات ولوائح ونظم وقوانين كان من الصعب على أبناء الشجرة تحقيقها، وظلوا يسرعون للتواري خلف الشجرة عندما يشاهدونه وهو يمارس الرياضة صباحاً، أصبحوا غير راغبين في أي حوار معه. وبعد فترة وجيزة علم أبناء الشجرة أن العقيد (عنجر) تمت ترقيته وتعيينه مسؤولاً عن إدارة المطافئ في الميناء الرئيسي للبلاد، وهكذا اختفى كما غاب من قبل (بشير الفاضل) و(الحارس) و(عبد الله أوهاج) و(أكاشي الهندي) و(ديانا أودجرز).

مرت السنوات وتفرّقت السّبل بأبناء الشجرة، بعضهم يعمل داخل البلاد والآخر هاجر لأقطار مختلفة من العالم، شكّلت البيئة التي عاشوا فيها إحساسهم بالحياة والجمال والخضرة والتنوع، وبالفعل فقد صنع التاريخ مستقبلهم فكانوا الأكثر انصهاراً في المجتمعات وتقبّلاً للآخر،

تعايشوا مع كل الثقافات، فهم أينما ذهبوا وجدوا نسخاً مماثلة للعمدة (محمد الكبير) و(بشير الفاضل) و(الحارس) و(مختار) و(عبد الله أوهاج) و(أكاشي الهندي) و(ديانا أودجرز) والعقيد (داؤود عنجر). ظلوا على تواصل عبر مواقع التواصل الاجتماعي، يذكرون أيام الشجرة والحي البريطاني و(الديدرية) وقصص الحرّاس وسطوة العقيد (عنجر). اتفقوا فيما بينهم أن يلتقوا جميعاً في إجازة لمدة يومين في (الحي البريطاني)، يسترجعون الذكريات الجميلة، ويتجولون في ميادين الحي سابغة الخضرة، ويشاهدون ملاعب التنس والجولف، ويزورون المسبح ويشاهدون حصان العمدة. جاءت لحظات اللقاء الجميلة، بعضهم لم يتعرّف على الآخر، فقد فعلت بهم السنوات ما فعلت، تغيّرت الأشكال لكن بقيت قيم الانتماء لهذا المكان، تعانقوا في شوق وودّ ومحبةٍ، وسكنوا في الفندق الأثري القديم، الذي لم يعد كما كان، تضاءلت الخضرة فيه، واختفت معالم التنسيق للميادين الخضراء، لم يشاهدوا (النوادل) بلباسهم الأبيض المعهود، وجدوا أطلال شيءٍ جميلٍ كان هنا، تجولوا في شوارع (الحي البريطاني)، فوجدوا مكان شجرتهم كشكاً صغيراً للشرطة، ذبلت الأشجار واختفت معالم ميادين الجولف واحتلّتها بنايات حزينة متواضعة البناء، لم يجدوا نسخاً جديدة من العمدة (محمد الكبير) و(بشير الفاضل) و(مختار) و(الحارس) و(عبد الله أوهاج) و(أكاشي الهندي) و(ديانا أودجرز) والعقيد (داؤود عنجر)، زاروا منازلهم القديمة وكتبوا نعياً على أبوابها أنها رحلت واختفت تماماً مثلما غادر (أكاشي الهندي). كان يمكن أن يكون الحي البريطاني بصورته الأولى نموذجاً لكل حي في البلاد، كانت تلك تطلعات أبناء الشجرة أن تعيش البلاد كلها كما عاشوا هم، وأن يجدوا كل المدينة الجديدة صوراً من الحي البريطاني، لكن كانت المفاجأة أن الحي ذاته ذهب، وأصبح ذكريات تروى، وقصصاً تُحكى، عندما أرادوا الرجوع كان في مخيلتهم القطار الأنيق الذي ينطلق من المدينة الجديدة، وحركة المسافرين والقادمين، ونشاطُ ناظر المحطة وحيوية عمال القطار.

كان (الحي البريطاني) و(الديدرية) أمكنة كما الطفل الرضيع تصحو على صافرات الورش وتنام كما غرّد مغنّيها عند العودة مع الظلام من المصانع والحقول، طفلٌ لا يعرف (البامبرز) وعيد الميلاد واحتفالات التخرج في الروضة. كانت المدينة الجديدة طفلاً (تهدهده) أصوات القاطرات عند القضبان لتجلب له النعاس، يميز صوت القطار المغادر فينام على أنغام الرحيل، وينتعش عند فتح (السيمافور) ليعلن وصول قطارٍ جديدٍ، فتسري في جسد الطفل روح النشاط والعمل.

خرج القطار ولم يعد إلى (الديدرية)، لم يبحث عنه الناس، ولم تنشر صوره في الصحف ومواقع التواصل الاجتماعي، ولم تنقل الإذاعات أوصافه وترجو ممن تعرف عليه الاتصال بالحي البريطاني، أصبح القطار نعياً أليماً انتشر دونما عزاءٍ وصيوانٍ و(فاتحة)، خرج القطار وخيّم الحزن في (الديدرية) فتساقط الدمع من (السيمافور) و(التابلت) و(البلنجة)، ورفرفت الرايات السوداءُ في مكاتب العموم بالسكة الحديد و(الورش) و(المسبك)، وجاءت إشارات التعازي من الأقاليم والأقسام وعمال (الدريسة) وناظر محطة (مسمار) والنقابات، تحرك القطار الحزين وفي جوفه أبناء الشجرة، ولم يستمتعوا بذلك الصوت الخالدِ في محطة المدينة الجديدة مسوقاً لسلعة الباسطة (ما بالسمنة وكدة) الذي يجدون فيه لون وطعم ورائحة المدينة الجديدة، حتى أصبح هذا الصوت جزءاً من الإحساس بالوجود هنا، لقد ركب ذلك الصوت مع القطار وهو أيضاً لم يعد حتى الآن.

تحرك القطار من المدينة وغاب هذه المرة أبناء الشجرة بالحي البريطاني كما غاب من قبل العمدة (محمد الكبير) و(مختار) و(بشير الفاضل) و(الحارس) و(عبد الله أوهاج) و(أكاشي الهندي) و(ديانا أودجرز) والعقيد (داؤود عنجر).

-2-

السـاعـة 25

يبدو المكان هنا هادئاً وجميلاً، تناثرت بناياتٌ أسمنتيةٌ أنيقة المعمار، وتلونت كأنها احتفالات في عيد (هولي) في الهند الذي يرمز إلى انتصار قوى الخير على الشر، ويمتاز بتنوع ألوان أزياء المحتفلين. تكسو ميادين (الحي الراقي) خضرة متناسقة، وتتسم بيوته، التي تتكون غالباً من طابقين، بمساحات واسعة فيها أشجار الزينة والفواكه، وبعض الطيور البريئة التي وُضعت في أقفاص تحت الشجر، تُزيّن المنازل الأرائك الخارجية الجميلة والمسابح والممرات التي يبدو أن تشكيليين ساهموا في إنشائها. يقطن الحي كبار التجار وبعض مسؤولي الدولة السابقين وقليل من المستثمرين الأجانب، داخل كل جدارٍ من جدران هذه المنازل حكاية وقصة. سكّان البلدة الكبيرة يعتقدون أن السعادة تنبع من هذا الحي، وأن الفرح والاستقرار والطمأنينة تنمو فيه كما تسمق الأشجار الخضراء الفارعة التي تحفّه. في وسط (الحي الراقي) كان يوجد منزل(جلال عثمان) رجلٌ في منتصف الأربعينيات من عمره، ما زالت بقايا وسامة الشباب فيه، كثيرُ العناية بمظهره وملابسه وعطره، يحرص على ارتداء أفخم ساعةٍ، ويقود آخر الموديلات من السيارات، ويحمل أغلى أنواع الهواتف، جاء إلى هذا الحي بعد رحلة طويلة قضاها في جمع المال، فقد ترك الدراسة عقب المرحلة الثانوية، وأصبح تاجراً في سلعة (الفحم) يذهب إلى جنوب البلاد في رحلات طويلة ويعود محملاً الشاحناتِ بهذه السلعة ليوزعها في البلدة الكبيرة، كان في بداياته يسكن الحي الفقير المجاور للحي الراقي، ظلّت كل أمانيه أن يسكن هذا الحي، صوّرت له اعتقاداته أن النجاح والتميز مرتبط بأن يكون الشخص أحد سكان (الحي الراقي)، جمع من تجارة (الفحم) ما يضمن له العيش الكريم المتواضع شأنه شأن الأسر الغنية بمقاييس الحي الشعبي الذي يسكن فيه، ولكنه في نفسه يعتقد أنه فقير جداً، ذلك أن مقاييسه هي مقاييس سكان الحي الراقي، فهو من الناس الذين يقيسون أنفسهم بمقاييس غيرهم.

دون مقدمات ترك (جلال عثمان) تجارة (الفحم)، واشترى دكاناً متواضعاً وسط سوق البلدة، فيه أرفف خالية من البضاعة، وصنع لوحة كبيرة كتب عليها محلات الزعيم، لا أحد يعرف في السوق نوع التجارة التي يديرها، رغم أن أمواله أصبحت تتكاثر، وجعل لنفسه ندماء أمام محله

ممن هوايتهم التحلّق حول أصحاب المال، مثل هؤلاء يوجدون بكثرة، مهمتهم تكمن في تلبية الحاجات النفيسة لأمثال (جلال عثمان) فأطلقوا عليه لقب الزعيم، يُصورون له أنه أعظم إنسان أنجبته البشرية، وأنه ليس ككل البشر، فيصدّق ذلك ويتصرف بما أوحي إليه، فهم يتكسّبون من هذا السلوك الذي أصبح مهنتهم، من هؤلاء جاره القديم (عوض كوارث) هكذا التصق اللقب به، ويبدو أنه في مراهقته كان كثير المشاكل والشغب والنزاعات، فاشتهر بهذا الاسم حتى لازمه إلى الآن، ظلّت مهمة (عوض كوارث) هي مرافقة الزعيم في معظم جولاته وزياراته، ولا يفارقه في جلساته أمام المتجر، حيث يهيّئ المكان ويقوم بعمليات حركية مثل التي يفعلها الحرس الخاص لمسؤولي الحكومات، فيرصد حركات وإيماءات الحضور ليترجمها للزعيم بعد انفضاض الجلسة، أصبح أكثر الندماء فهماً لحاجات(جلال عثمان) النفسية لذا كان الأكثر قرباً وتدليلاً، كانت من أكبر إنجازات (عوض كوارث) أنه سبب شراء منزل الزعيم في الحي الراقي، فقد علِم أن وزير التربية الأسبق عرض منزله في الحي الراقي للبيع بعد أن ضاقت به الظروف، ظلّ كل سكان الحي متعاطفين مع الوزير الأسبق، لكنهم لا يستطيعون فعل شيء، فهو يريد شراء منزل في حي شعبي ويشتري بالباقي سيارة أجرة كبيرةٍ تعينه على متطلبات الحياة. بذل (كوارث) جهداً كبيراً حتى تحققت هذه الصفقة، وانتقل الزعيم إلى (الحي الراقي) وسكن في منزل وزير التربية الأسبق، كانت أرفف المنزل مليئة بالكتب والمجلات والمذكرات، والحوائط مزينة بالشهادات الأكاديمية وصور المؤتمرات الخارجية وافتتاح المدارس وتكريم الأوائل من الطلبة، والآن أصبحت تحمل صور(جلال عثمان) مرة أمام سيارته الجديدة، ومرة ينظر لساعته القيمة، ومرة أمام دكّانه ومعه ندماء المال، لو كانت الجدران تنطق لشَكَتْ حال ما وصلت إليه من نظرةٍ متدهورةٍ لأهداف الحياة الإنسانية، كانت الدار منطلق الأفكار العامة التي تنهض بالشعوب، والآن أصبحت طموحاً محصوراً في سيارة جديدة وساعةٍ أنيقة وهاتف فاخرٍ وندماء يصنعون الأوهام والاعتقادات المزيفة.

استطاع (جلال عثمان) أن يجعل الكثير من سكان الحي الفقير يتحلقون حول مشروعاته الإنسانية المزيفة التي ابتدعها (عوض كوارث)، ففي أحد المساءات زار نادي أشبال الحيّ، وتبرّع لهم بمبلغ كبيرٍ من المال، وأهدى لهم بعض الأدوات الرياضية، فكان الجزاء تنفيذ فكرة كوارث التي فرضها على رئيس النادي، أن المقابل لا بد أن يكون تنظيم دورة رياضية تحمل اسم الزعيم يتم من خلالها تكريم(جلال عثمان) على إنسانيته، وظل يمارس سلوكاً غريباً وهو التودد للأسر الكبيرة في الحي الذين برز أبناؤهم في مجالات متنوعة، ويقطنون في أحياء أخرى أو خارج البلاد، فيُغدق عليهم العطايا والأموال، البعض يتجاوب معه، والآخر يرفضها

لأنهم علموا أن المقصود هو رسالة من الزعيم مضمونها أنني أحسن من أبنائكم، كما أنه سريع التفاعل مع الأخبار الحزينة، كان يحبّها جداً ويصرف فيها أموالاً طائلة مثل الموت والمرض والطلاق والسجن وخيبة الأبناء والخلافات والتنازع بين الأسر، فعوض كوارث يرصد له ذلك ثم يتدخّل بطرق فيها كثير من ملامح الرياء والتفاخر والظهور، وكان الزعيم نادر التواجد في مناسبات الأفراح، لأنها تحزنه جداً وتبدد مخططاته في أنه صانع كل فرح، ويحرص على عدم حضور أي مناسبة لا يكون فيها هو البطل، إضافةً إلى ذلك فإن مثل هذه المناسبات العامة تجمعه بالبعض الذين لا يعيرونه اهتماماً، وكانت تلك مشكلته الكبرى، ومن هؤلاء معلّم التاريخ المتقاعد الأستاذ(أحمد البدوي) كان في نهاية الستينيات من عمره، يرتدى دوماً الثوب الشعبي والعمامة، وله نظارة سوداءُ لا تفارقه، كان المعلم الأشهر في الحي الفقير، وصاحب التأثير الأقوى على شباب الحي، فقد كان مهتماً في المدرسة بالفنون والآداب وله نشرة ثقافية يكتب فيها الطلبة تُسمى (الساعة 25)، استطاعت هذه النشرة التي كانت أشبه بالصحيفة الحائطية أن تخرج عمالقة متميزين في الصحافة والإعلام، حتى الطلبة الذين اختاروا مجالات أخرى يعترفون بكل فخر أن الساعة (25) كانت بوابتهم الأولى للعالم قبل الانترنت والفضائيات ومنافذ المعلومات. ظلّ الأستاذ (أحمد البدوي) غير مبالٍ بتصرفات الزعيم فهو يعرفه منذ كان طالباً بالمدرسة، ويعرف عنه الكثير من قصص الخيبات والمواقف البائسة، والغشّ في الامتحانات، وتكوين عصابات من المراهقين للهجوم على أبناء (الحي الراقي) دون سببٍ.

استطاع (عوض كوارث) بمكره أن يجعل الزعيم بطلاً في معظم أحداث الحيّ، لكنّه لم يستطع اختراق المجموعة التي كونها الأستاذ (أحمد البدوي) مع طلابه المرموقين الذين يعملون في مناصب عليا داخل وخارج البلاد، فقد كانوا يجمعون الأموال لصيانة المدارس، وابتدعوا محفظة مالية لتوفير وجبة الطالب الفقير، وظلوا يكرّمون الأوائل من طلبة المدارس لإحياء التنافس النزيه، ويقيمون دورات التعريف بالجامعات والتخصصات للطلبة المقبلين على الدراسة في الجامعات، ويأتي الأطباء منهم في الإجازات ويقيمون أياماً علاجية مجانية، وظل الأستاذ (أحمد البدوي) ينتهز مثل هذه المناسبات ويصدر نشرته القديمة (الساعة 25).

كانت هذه الأنشطة مزعجة جداً للزعيم ورفيقه (عوض كوارث)، وحاولا في مرات كثيرة دعوة الأستاذ (أحمد البدوي) واستمالته، لكنه كان يعرف خططهما فيتهرّب منهما، حاولا في مرة اختلاق شائعة أن الأستاذ (أحمد البدوي) يختلس الأموال التي تأتيه لصيانة المدارس، وأنفقا في ذلك أموالاً ودربا عدداً من النّدماء على نسج الأكاذيب، لكن سمعةَ وتاريخَ الأستاذ (أحمد البدوي) كانت الأقوى، استطاع (جلال عثمان) أن يحقّقَ معظم الأحلام التي رسمها، لكنّه لم

يستطع إقناع الأستاذ (أحمد البدوي) وقراء نشرة 25 أنه موجودٌ ومهمٌ، وظلّت هذه معركته التي لم يحقّق فيها أي نصر.

كان الأستاذ (أحمد البدوي) يعتقد جازماً أن وراء (جلال عثمان) سراً كبيراً، فمن تاجر(فحم) إلى صاحب أموالٍ ضخمةٍ دون نشاطٍ تجاريٍ ملموس، وأكثر ما أحزن الأستاذ (أحمد البدوي) أن الزعيم يتلذذ بسكنه في دار وزير التربية والتعليم الأسبق الذي كان معلماً متميزاً، فقبل تولّيه المنصبَ كتب الأشعارَ الخالدةَ لطلبة المدارس الذين ما زالوا يرددونها في طابور الصباح، وقد قال الزعيم في نادي الأشبال عند زيارته المشهورة إنه يسكن الآن في منزل الوزير، ماذا فعلتْ له الشهادات الأكاديمية والمناصب؟! المال هو كل شيء، وواصل موصياً الأشبالَ، عليكم بالمال، فلن تفيدكم المدارس والجامعات، وستظلّون في عالم الكتب الغبي، كحال جماعة نشرة (الساعة 25)، ماذا فعلتْ لهم الأشعار والقصص القصيرة والروايات غير الأوهام التي يعيشون فيها وعليها؟!

كان ذلك هو إحساس (جلال عثمان) نحو الأشياء التي لم يستطع أن يخترقها ويجعل من نفسه بطلاً فيها، فكّر يوماً أن يستأجر أحداً ليكتب له رواية ويقوم بنشرها باسمه، لكن (عوض كوارث) نصحه بأن ذلك عمل مكشوف فالكل يعرف بأن لا علاقة له بالثقافة، بل كان يهاجم قُرّاء نشرة (الساعة 25)، وأكّد له أن لا أحدَ ستنطلي عليه خديعة أنه كاتب ومبدع، وإذا استُضيفَ في مجالسِ الثقافية سينكشف أمره.

عندما يعود (جلال عثمان) إلى منزله الأنيق في الحي الراقي يومياً بعد أوقات يقضيها في صنع مظاهر التفاخر والادعاء الزائف، لا يستمتع بالجمال الذي حوله، بل يجلس في شرفته المطلّة على الحديقة ويفكر في خطط اليوم التالي، وكيف سيحبط مظاهر النجاح في المشروعات التي تجاوزته؟ وكيف يلفتُ انتباه الأستاذ (أحمد البدوي)؟ وكيف يثبت لسكان الحي الراقي أنه الأكثر مالاً وأهمية؟ ما كان يعرف أن سرّ السعادة هو الإحساس بفرح الآخرين والتفاعل معه، وأنها العطاء الخالي من الرياء والتفاخر، هو يعيش هنا لوحده فقد تركته زوجته وانفصلت عنه بعد سنة واحدة من الزواج، فقد ظلّ يتعالى عليها ويسخر من اختيارات ملابسها، وقال لها في أكثر من مرّة إنه أخطأ بالزواج منها، وأكثر ما يزعجه إعجابها بمجموعة نشرة (الساعة 25)، لكن السبب الرئيس في إصرار زوجته على الانفصال هو محاولاتها المتكررة لعرفة سرّ الثروة المالية التي هبطت عليه فجأةً، والغموض الذي اعترى سلوكه مؤخراً، وشرائح الهواتف المتعددة التي يمتلكها، والزيارات الغريبة في وسط الليل من أناس لا تعرفهم، سألته مراراً عن

ذلك ولكنه كان يردّ بعنف أن ذلك شأن لا يعنيها، اختارت الطلاق رغم أنه اشترى لها سيارة فاخرة وأغدق عليها الأموال التي ما كانت تعني لها شيئاً جديداً، فقد كان والدها أحد كبار تجار(الفحم) الذين عمل عندهم (جلال عثمان) موزعاً صغيراً، شعرتْ أنه يُراقب تحركاتها، ربما كان يكلّف أحداً من ندماء المال بمعرفة الأماكن التي تذهب إليها، كانت كلّ تصرفاته تقوم على الحذر حتى مع زوجته ورفيقه (عوض كوارث) فقد كان يمنعه من الحضور إلى المنزل في أوقات معينةٍ، وهناك يوم في الأسبوع يغيب فيه ولا يعرف أحد أين يذهب، ظلّت حياته موزعةً ما بين الغموض وأنشطة الرياء والظهور الاجتماعي ومحاربة النجاح الذي لا يكون بطلاً فيه، كان قلقاً في دواخله ويحاول إبداء السعادة، هناك شيء غامض في حياته لا يجعله يعيش كباقي الناس، حاول مرة أن يكون جزءاً من جماعة المسجد، فذهب لعدة صلوات لكنه دوماً يمارس الانتقاد للفرش وساعة المسجد وعدم وجود عطور، فأعلن عن تبرع كبير، لكن جماعة المسجد طلبوا منه التواصل مع الأستاذ (أحمد البدوي) فهو المسؤول عن تنسيق الدعم ومعرفة الاحتياجات، خرج من عندهم ولم يعد مرة أخرى، فلن يستطع أن يكون بطلاً هنا طالما الأستاذ موجود، فكر كثيراً في هذه الثقة التي يجدها الأستاذ (أحمد البدوي) رغم أنه لا يملك المال، كانت هذه من الأشياء التي لم يستوعبها فهو يعتقد أن المال يفعل كل شيء!! حتى حب الناس وثقتهم!! وفي دواخله يقول إنهم بسطاء لا يعرفون مصالحهم، فقط عوض كوارث عرف ذلك، لماذا لا يكونون مثله؟ لكنه يشعر بالتفاؤل أن أشبال النادي عرفوا الحقيقة، فهم يتواصلون معه، ويطلبون الدعم، ويقيمون له احتفالات التكريم، ويفسحون له المجالس، وينادونه بالزعيم، قرر أن يترك كل الجماعات في الحي خاصة مجموعة الساعة 25 ويركّز على الأشبال فهم المستقبل من وجهة نظره.

في الجلسة الصباحية أمام محلّه في السوق قال لصديقه (عوض كوارث) إنه يريد أن يدعم أنشطة ثقافية واجتماعية مثل التي تقوم بها مجموعة (الساعة 25) ولكن داخل نادي الأشبال، وقال إنه يريد أن ينظّم أسبوعاً للتوعية من مخاطر المخدرات، وسيقوم بالتمويل كاملاً من ملصقات ومعارض وطلب منه البحث عن متحدّثين من المتخصصين في هذا المجال، لم ترُق الفكرة لعوض كوارث، واقترح عليه تنظيم رحلة ترفيهية لهم أو شراء أطقم ملابس رياضية أو حتى توزيع المال عليهم، لكنه أصرّ على تنفيذ فكرته، قام (عوض كوارث) بالتنفيذ واشترط أن تكون صورة الزعيم في كل الملصقات، وأن يجيئ الأسبوع برعايته، وتواصلوا مع الجهات الرسمية ووافق رئيس البلدية أن يكون من الحضور لتظهر صورة (جلال عثمان) في الصحف ومواقع التواصل الاجتماعي بجانب المسؤول الكبير.

على عكس ما توقّع الزعيم رحبت مجموعة (الساعة 25) بهذا العمل، واعتقدوا أن (جلال عثمان) ربما عادَ لرشده ليوظّف ماله في مشاريع يستفيد منها الحي، رغم تحفظهم على شكل الدعاية والإعلان حيث غطّت صور الزعيم على مضمون النشاط وهو مكافحة المخدرات، فالصور نفسها فيها كثير من الرياء، ففي بعضها يظهر الزعيم وهو يحرق أنواعاً من المخدرات، وفي الثانية يظهر مُقدماً المساعدة لمدمن وهو يدخل مستشفى معالجة الإدمان، وفي الصورة الثالثة يرفع كلتا يديه وبينهما عبارة لا للمخدرات، كان المعرض أقرب للترويج له بأنه رجل برّ وإحسان وعمل خير، أكثر من جرعات توعوية للأشبال، رغم ذلك تجاوبت مجموعة (الساعة 25) مع هذا العمل إلا الأستاذ (أحمد البدوي)، فقد كان يعرف جيداً الزعيم واعتبرها واحدة من خططه التي لن تفضي إلى خير، لكنه التزم الصمت حتى لا يُوصف بأنه يجهضُ المشاريع التي لا يكون عنصراً أساسياً فيها.

في يوم الافتتاح في نادي الأشبال، اجتمع أهالي الحي الشعبي الفقير، فهم يعرفون مخاطر المخدرات التي كان ضحيتها عدداً من شباب الحي، وزاد من اهتمام الناس بالاحتفال أن السلطات أعلنت عثورها على حاوية للمخدرات في إحدى السفن التجارية كانت مخبّأة وسط عدد من الحاويات بطريقة احترافية وكان من المخطط دخولها للبلاد، وأنها استطاعت الوصول إلى رؤوس التجّار ومجرمي التوزيع، وستعلن لاحقاً معلومات جديدة، كان هذا الخبر كافياً أن يجعل للأسبوع أهميته، فهذا دليل أن المخدرات تصل إلى البلاد وبكميات كبيرة، حضر رئيس البلدية واحتشد أبناء الحي ولكن لم يحضر (جلال عثمان)، تواصل معه (عوض كوارث) دون ردّ، جرّب كل أرقام هواتفه ولم يصل إلى نتيجة، فأنسحب خلسة إلى منزل الزعيم ليستجلي الأمر، ليشاهد من بعيد مجموعات من رجال الشرطة يحيطون بالمنزل، ومعهم كلبٌ بوليسي، وقف بعيداً يراقب رجال الشرطة دون أن يشاهدوه، وفجأة شاهد الشرطة وهي تقبض على الزعيم وتقيّده بالسلاسل وتذهب به في فوج من السيارات، وأصوات الإنذار تومئ أن الحدث كبير.

في مكان الاحتفال والناس في ترقّب الافتتاح ورئيس البلدية ينتظر، إذ بهاتفه يرنّ ويتحدث معه مدير الشرطة بالمنطقة، ويبلغه أن (جلال عثمان) هو رئيس العصابة التي توزع المخدرات، وأن الحاويةَ التي تم القبض عليها أمس هو الشريك الرئيسيّ فيها، وأنه الآن في قبضة الشرطة وقد اعترف بكل جرائمه.

ألجمت المفاجأة غير السارّة رئيس البلدية، لكنه تصرّف بحكمة ولم يعلن الخبر وقام بالافتتاح،

وعندما اعتلى منصة الخطابة، قال في كلمته، أرجو من الأشبال إنزال أي صورة عليها (جلال عثمان)، فالذي دعم هذا الأسبوع بأنشطته، هو نفسه الذي يجلب المخدرات ويروجها بينكم، إننا نعاتب جميعاً أنفسنا، فكيف نتجاوبُ مع تاريخ مليءٍ بمواقف الخيبات، فالماضي يصنع المستقبل، كان من الأجدى أن نسأل بعضنا، هل فجأةً أصبح (جلال عثمان) رجلَ برّ وإحسانٍ؟! لقد قام بهذا النشاط ليواري إجرامه ومساهماته في قتل الأجيال القادمة، فعل ذلك ليوفّر لنفسه الأموال، ويُوطن الحزن والمآسي في قلوب الآباء والأمهات، تبدّل الاحتفال فجأة من حشد يُمجّد أعمال الزعيم المزيّف إلى تجمّع يستعرض إجرامه ومآسيه والجروح التي أدمى بها جسد المجتمع.

انتهى الاحتفال وسط دهشةِ الجميع التي بدت عليهم، لكن أحد الحضور والذي كان يجلس في آخر الصفوف، علم أن وراء الأمر سراً كبيراً، كان ذلك الشخص هو الأستاذ (أحمد البدوي)، الذي قال للشباب إن الأسبوع سيستمر لكن بجهد ودعم مجموعة (الساعة 25).

-3-

القميص الأصفـر

على ضفاف النيل العظيم دارت حكايات وأحداث، عاش هنا أناس منذ زمن بعيد ورحلوا، كانوا يقدسون هذه المياه ويقدمون لها القرابين وعروس النيل، كم من فتاة حسناء غرقت في هذه المياه من أجل إرضاء النيل وجلب البركة والخير! في شاطئ أخضر على هذا النهر الخالد توجد (الجابية) وهي رصيف مكونٌ من ثلاثة أضلاع، مبنىً من حجر الجبال ترتكز عليه الساقية، وهي آلة لجلب الماء بطريقة بدائية تستخدم الدواب في تحريك (التروس) لري الزرع، ظلّ هذا المكان النافذة التي يأتي إليها (عبد الله منصور) كلما أراد القراءة العكسية لطفولته وبعض شبابه الذي أمضاه في هذا المكان بين أقرانه، فهم كانوا يأتون هنا لممارسة السباحة في النيل ويتخذون من (الجابية) منصةً للقفز، وهم مبدعون في ذلك، ويطلقون أسماء محلية على كل طريقة في القفز، في حين يتمتع الماهر بالقفز بمكانة اجتماعية عالية وسط أقرانه شأنه شأن المتفوق في الدراسة، كان (عبد الله منصور) الابن الأكبر في أسرته، فلم يعش كما عاش الشباب مزهواً بمراهقته ولكنه كان واسع الأفق، كثير التطلع، دائم التفكير في المستقبل، في هذا المكان التقت به لأول مرة فتاة يافعة صغيرة في المدارس الثانوية، لا تخرج كثيراً من المنزل يتحدث الطلبة في المدارس المحيطة بمدرستها عن جمالها وإبائها؛ فهي لا تعير أحداً اهتماماً، كانت دوماً ما تأتي إلى (الجابية) برفقة والدتها أو أخيها الصغير، تلك المرة الأولى التي تأتي لوحدها، وتردد (عبد الله منصور) في التحدث معها لكنه استجمع كل قواه وألقى عليها التحية، فبادلته بترحابٍ، وعلّقت بإعجاب على قميصه الأصفر الذي كان يرتديه، لم تنتظر جوابه وغادرت سريعاً.

أحسّ (عبد الله منصور) الفتى الصغير في تلك الفترة أن الكون نسج طيفاً من الجمال وأهداه إليه، إنه الإحساس بالمرأة روحاً ومشاعراً، الإحساس الأول الذي يبقي عطراً لا تمحيه السنوات، وصورة باقية في معرض الذاكرة الانتقائية لروائع الشخصيات، ظلّ الفتى الصغير مهتماً بقميصه الأصفر، وضعه في مكان خاص ولا يرتديه إلا عند التخطيط للجلوس أمام بوابة مدرسة (رحاب) ليلقي عليها فقط التحية، لا يستطيع بمقاييس ذلك الزمان التواصل معها، فلا إنترنت أو واتساب أو حتى جوال. فإلقاء التحية والسلام أعمق معاني التواصل آنذاك، لذلك

كانت النظرة لغة عميقة، والتحية أبلغ معاني الغزل، والفتيات في ذلك الزمان كائنات مُدَثّرة بالجمال تسبح في فضاء خيالي صعب المنال، كالأساطير والحكاوي والأحاجي، تلك أقصى مساحات الخيال، ومن تجرأ على تجاوز هذه الحدود يكتب رسالةً صغيرةً بريئةً الحروف خجولة الكلمات. استطاع (عبد الله منصور) يوماً أن يدس رسالة في يدها بينما هي تغادر من المدرسة إلى البيت، رسالة كتب فيها:

إلى رحاب:

الراء يروي ظمأ شوقي يا فتاتي

الحاء حبّ في الخيال منثور أغاني

الألف أُلفة بين سحرك والفؤاد

والباء بوحٌ لك بالحب يا أغلى الأماني

تمر السنوات وتتفرق السبل ويلتحق (عبد الله منصور) بجامعة مرموقة في بلده يسميها أهلها (الجميلة ومستحيلة) لأن الأذكياء من الطلبة فقط هم الذين يرتادونها، فجأةً وجد نفسه في مجتمع جديدٍ، فتيات من كل ألوان الطيف، بعضهنّ في قمة الأناقة والزينة والثياب الزاهية، وبعضهنّ تبدو عليهنّ مظاهر البداوة في كلامهنّ ولبسهنّ، بعضهنّ من طبقات فاحشة الثراء، وصنف آخر يبدو الفقر في وجوههنّ، هكذا كانت الجامعات في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، تجمع الحكومات كل هذه الأطياف في مكان واحد وتنتج مجتمعاً جديداً منصهراً، مجتمع المدينة والقرية، والغابة والصحراء، عبّر الطلبة عن هذا التنوع أشعاراً فكاهية وسخرية جميلة، لكنهم عاشوا نسيجاً مجتمعياً رائعاً.

في مكان بالقرب من البوابة الرئيسة للجامعة ظل (عبد الله منصور) دائم الوجود بقميص أصفر، يبدل كل قميص أصفر بأصفر آخر، لا يجلس إلا في هذا المكان أو داخل قاعة الدرس، لم يشعر في المجتمع الجديد بذلك الشعور الذي يعتريه عندما يلتقي برحاب عند بوابة مدرستها أو في الجابية، وجد هنا لغةً مختلفةً وفتياتٍ متطلعاتٍ ومشاعر موضوعة في أرقام الحاسبات الآلية، هنا ماتت المشاعر، وتحدثت الأحاسيس بلغة الموضوعية وحسابات الربح والخسارة، في كل مرة يذهب في جولة لوحده داخل المدرجات والقاعات والميادين يبحث عن (رحاب) وعن (الجابية) وعن النيل وعن دفقات موجه الحانية فلا يجد أياً منها، في الطرف الآخر أصبح

بالنسبة لفتيات الجامعة صندوقاً مغلقاً من الغموض، فهو لا يتحدث إلا في مشاركاته داخل القاعة التي كانت تخطف النجومية، وكان ذلك وحده سبباً كافياً لجعله مقصد التلميح ومحاولة التقرّب من بعض الفتيات، لكنه كان يبحث عن رحاب، لم يجدها بينهنّ.

مرت سنوات الجامعة وتخرج (عبد الله منصور) بدرجة ممتاز وكان الخريج الأول الذي التحق بوظيفة مرموقة في المصرف الشهير ببلاده، انتظر أول راتب له ورجع إلى بلدته الصغيرة، والأماني أمامه تقذف بصور جميلة حيث سيذهب إلى الجابية ويرى (رحاب) هناك، ارتدى أفخر قميص أصفر عنده، وأعلن القطار وصوله لبلدته الصغيرة، شعر بأنه عاد لنفسه التي تركها هنا ومرت معظم الذكريات شريطاً أنيقاً، شاهد من بعيد أفواجاً من الرجال والنساء في تجمعات متفرقة وحشوداً تقف على الجابية تراقب النيل، ثم بدت أصوات نواح تصل إليه، هنا اختلط الفرح بالقلق حتى وصل قريباً وتلقاه درويش البلدة (الجود) الذي كان دوماً يتطوع بنقل الأخبار، وقال له إن (عبّارة) صغيرة غرقت صباح اليوم وفي جوفها (رحاب) وأسرتها، كانوا يعبرون النيل لحضور مراسم زواج في الضفة الأخرى فاصطدمت عبّارتهم الصغيرة بحجر(دودو) قبالة الجابية، تجمع أهالي البلدة شرق النيل وغربه وبدأت عمليات البحث، بعضهم جلس على ضفاف الجابية والبعض الآخر ذهب شمالاً عند منحنى(الشلال). في هذا المكان وُجدت الكثير من الجثث التي غدر بها النيل سابقاً، فشقيق (عبد الله منصور) الأصغر ابتلعه النيل منذ سنواتٍ ووجُد في الشلال، ذات المنظر وذات الناس، وذات النساء المتدثرات بالحزن، لم يلتفت أحد لعودة (عبد الله منصور)، فالحزن كان أكبر من الالتفات للترحيب بقادم، خلع منصور ملابسه وانخرط مع الباحثين فقد كان سباحاً ماهراً، واستقل مركباً بدائياً صغيراً يستخدم لصيد الأسماك ومعه (الجود الدرويش)، ورسى على حجر (دودو)، وبمهارته في رمي الشباك حدد مكان إحدى الجثث، وبمساعدة (الجود) استطاع أن يرمي بالجثة إلى الشاطئ القريب من الحجر، إنها جثة (رحاب)، حملها وأتى بها إلى الجابية حيث يقف أهالي البلدة، هذه المرة لم ينتظرها أمام بوابة المدرسة، ولم يكتب لها قصيدة غرامية، ولكنه جاء يحملها بين ذراعيه جثة ابتلعها النيل، غطى وجهها بقميصه الأصفر، وهنا انتبه أهالي البلدة إلى عودته، فكان السلام مختلطاً بعبارات العزاء، أما باقي أسرتها فظل الأهالي أياماً وشهوراً في بحث دائم ولم يجدوا لهم أثراً، ابتعلهم النيل دون قبور توثق ذكرياتهم، وأقارب يزورونهم أيام الأعياد كما يفعل أهالي البلدة.

في مكان عمله الجديد ظلّ (عبد الله منصور) يمارس ذات الغموض، زميلات العمل ظللن يستخدمن أنواعاً مختلفة من أدوات التقرب لكنها باءت بالفشل، ظل يذهب كل نهاية أسبوع

إلى بلدته الصغيرة ويجلس على (الجابية) معاتباً حجر(دودو) الذي كان سبباً في غرق العبّارة الصغيرة، ثم بعد ذلك يبحث عن(الجود الدرويش) ليرافقه إلى المقابر فيجلس على قبر (رحاب)، كان هو الوحيد الذي يزورها يرافقه (الجود) الدرويش الذي يعرف هذا التواصل، في كل مرة يحكي لها قصة مختلفة في حياته، فيرويها بصمت فصيح، وهو على يقين أنها تسمعه وتبتسم معه وتحزن. أصبحت البلدة تعني له الجابية والقبر والدرويش (الجود)، أمثال (الجود) تماماً مثل النوارس البيضاء في السّوح الآمنة، يحملون أنسام الود والخير، يُعطّرون الجلسات (بالقفشات) والحكاوي والقصص الجميلة، يحبون البلدة، وهي تحبهم، هي بدونهم كالماء الذي لا يروي الظمأ وكالشجر بدون ظلال وكالريح بدون نسائم. هو نموذج الإنسانية والحب والخير وظل الجنة الممدود في وسط البلدة، ظل(الجود) لسنوات دائم الحركة والتفقد في مشفى البلدة الصغير، يواسي المرضى ويذهب لمطاردة الطبيب لو وصل مريض جديد، له مقدرة كبيرة على معرفة قاصدي المشفى من أماكن بعيدة والذين تنقصهم خبرة معرفة الناس والمكان. كان الناس يعتبرون الجود درويشاً مسكيناً، لكن (عبد الله منصور) كان ينظر إليه على أنه أعقل عقلاء البلدة.

تدرّج (عبد الله منصور) في السلك الإداري في المصرف الشهير حتى أصبح مديراً لإدارة عامة، ترقية واحدة فقط تفصله عن مدير المصرف، الذي كانت تشغله السيدة (نازك حلمي) المرأة الخمسينية جادة الملامح ذات الأصول المصرية، سيدة فارعة الطول، ممشوقة القوام، وردية الخدّين، ترتدي دوماً نظارة صغيرة تكشف ملامح جمال دفينٍ لم تستطع السنوات محوه، ظلت هي الوحيدة التي يتجاذب معها (عبد الله منصور) أحاديثاً خارج أطر العمل، سبقته بعامين في العمل وكان قد زارهم بمنزلهم في أحد الأعياد فوجدها تسكن لوحدها مع والدها الذي كان وزيراً شهيراً في حكومات السبعينيات، وقد أصدر بعد تقاعده كتاباً معروفاً عن تطور الأداء الإداري، كان منصور قد قرأه منذ سنوات، ظل معجباً بالوزير لعلمه ونزاهته فقد زارهم في منزل متواضع في حي شعبي بعد كل أمجاد الوظيفة والشهرة، لعل الالتقاء بالسيدة نازك كان سببه والدها، أو لعلّه الظرف الاجتماعي المشترك، فقد ترمّلت بعد عام واحد من زواجها بعد سقوط طائرة التدريب الحربية بزوجها الطيار الشاب، ووهبت حياتها بعد ذلك لوالدها المعاشي واعتذرت عن عدة محاولات للزواج، ظلّت صورة زوجها الطيار الحربي لا تفارقها، فقد زيّنت بها منضدة مكتبها، وخصّصت كل يوم جمعة لزيارة أسرته، وسمّت ابن إحدى شقيقاتها الذي يعيش في دولة أوربية مع أسرته(جمال) على اسم زوجها، وعندما يأتي (جمال) في إجازاته كانت تصطحبه معها في زيارتها الأسبوعية الراتبة.

أصبح (عبد الله منصور) يتردد من حين لآخر على منزل الأستاذ حلمي، هو يحب مثل هذه الشخصيات المليئة بالأحداث والمواقف والطرائف، يحكونها بانطلاق من غير تردّد أو خوف، فقد صارت أحاديثهم تاريخاً ومواقف مضت، هم نادراً ما يحكون عن الواقع، تجدهم دوماً في سجن التاريخ يتجولون في ردهاته، (عبد الله منصور) تأسره مثل هذه الحكايات، لذا نشأت صداقة بينه وبين هذا الراوي البديع، بالطبع ظلّت (نازك حلمي) سعيدة بهذه الزيارات والتلاقي والتقارب ووجدت في (عبد الله منصور) شخصاً مختلفاً عن الذي عرفته في المصرف، رأت فيه رجلاً ناضج التفكير، واسع الخيال، كثير التواضع، يتقبل الآخرين عكس ما كانت تعتقد، إضافة إلى ذلك فهو حكّاء يصنع الطُرف دون تكلّف، اعترفت له في أحد اللقاءات أنها معجبة جداً بقمصانه الصفراء، التي لا يرتدي سواها، قالت له إن الانتماء للون واحد هو الانتماء لاعتقاد مقاييس معينة للجمال عند الشخص، اعتقدت ذلك وما كانت تدري أن وراء الأمر سرّ كبير!! سرّ داخل هذا الرجل لأكثر من ثلاثين عاماً!! عندما أُعجبت (رحاب) بقميصه الأصفر، وعندما غطى وجهها وهي جثة على ضفاف النهر بقميص أصفر، سرّ ما عرفه إلا الدرويش والقبر، تجرأ في أحدى الزيارات وسألها عن سرّ عزوفها عن الزواج، تحدثت معه بكل صراحة، فقد وثقت فيه بما يكفي أن تبوح له، سألته هل تعرف شخصية الصورة التي على مكتبي؟ قال لها علمت من إحدى زميلاتك أنها صورة (جمال) زوجك الراحل، قالت له إن هذه الصورة هي تاريخي ومستقبلي، هي أولادي الذين كنا نأمل إنجابهم، هي تربيتهم ومدارسهم وجامعاتهم وزواجهم وأُسَرهم، هي كل الأمنيات التي خطّطنا لها، هي كل الأفراح والأحزان والمواقف التي كانت تختزنها لنا الحياة، لا أستطيع أن أتزوج وأنا مرتبطة بكل هذا التاريخ والمستقبل. قالت له إنني سعيدة بذلك، كوّنت مجتمعاً خاصاً بي، وطبعت صورةً (لجمال) آخر هو ابن شقيقتي الذي تخرّج قبل أعوام من الجامعة وأنتظر زواجه.

استقرّت هذه الكلمات في ركن قصي من أعماق (عبد الله منصور) يستدعيها كلّما ذهب إلى بلدته واصطحب الدرويش (الجود) لزيارة قبر (رحاب)، كان يظن أنه الوحيد في هذه الدنيا الذي توقّفت عقارب مشاعره في لحظة معينة من الزمن، لكنه أحس أنها بدأت تتحرك نحو شيء جميلٍ، تخيّل صورة رحاب بعد ثلاثين عاماً كيف كانت ستبدو؟ تخيلها تماماً مثل (نازك حلمي)، امرأة فارعة الطول، ممشوقة القوام، وردية الخدّين، هي ذاتها، نفس الهدوء والغموض والحياء، كانت رحلته هذه المرة مختلفة بعض الشيء، مليئةً بالأمل والترقب كأنه ينتظر شيئاً ما، في جوف الليل طلب من الدرويش أن يرافقه (للجابية)، والقمر ساطع على النيل يكشف كل الجمال، المياه تتدفق في هدوء والسكون أحدث طقساً من الطمأنينة، أهالي البلدة كانوا

يتجنبون دوماً الحضور (للجابية) في المساء، فالأساطير عندهم توارثوها جيلاً بعد جيل أن (جِنّية) تسكن هذا المكان ليلاً حتى إن بعضهم كان يعتقد جازماً أن كثيراً من (المراكب) البدائية التي غرقت في هذا المكان كانت سببها هذه (الجِنّية). اقترب (الجود) الدرويش من (عبد الله منصور) وقال له ظللت أنتظرك طيلة الأسبوع الماضي لأحكي لك حلماً جاءني في المنام بعد صلاة الظهر في المسجد، فقد تعوّد مثل هذا النوم منذ سنوات حتى يوقظه إمام المسجد ويتغدى معه ثم يصلي العصر ويغادر، قال له لقد رأيتك عريساً في احتفال كبير وبجانبك عروس جميلة، كان مكان العرس هنا في الجابية تحت شجرة (الحراز) الكبيرة المقابلة لنا، لكن في منتصف الاحتفال جاءت (رحاب) وهي تحمل قميصاً أصفر، وألبستك إياه وجلست مكان العروس التي نهضت وهي تبتسم وذهبت نحو النيل!! وهنا أيقظني الإمام ولا أدري مصير عروسك؟ قال هذا الكلام وكل همّه المصير الذي سيلقى هذه العروس المزعومة في حلمه، كأنه يعاتب الإمام على حضوره في هذه اللحظات الحاسمة. كان (الدرويش) يحكي هذا الحلم بسخرية وتهكم ولكن (عبد الله منصور) ظلّ يسأله عن تفاصيل دقيقة، مثل ماذا كانت ترتدي (رحاب)؟ وهل جاء معها أحد؟ وهل تحدّثت مع العروس؟ كأن الأمر حدث بالفعل. لم ينم تلك الليلة وسيطرت عليه أحلام (الجود) الدرويش التي كان يشعر بها بالفعل، جزم أن العروس هي (نازك حلمي) لكنّه ظل حائراً كما الدرويش!!! تُرى أين ذهبت؟ مرّت الليلة بطيئاً وعندما أشرقت شمس الصباح توجّه حتى دون وداع الدرويش إلى مكان عمله، وذهب مباشرة إلى منزل الأستاذ حلمي، وجده كالعادة جالساً على أريكة في فناء المنزل يعتني ببعض الزهور التي يرعاها، وبجانبه إبريق من الشاي الأخضر معشوقه المفضّل، جاءه هذه المرة في أمر مختلف فهو يريد أن يتحدث معه في أمر زواجه من ابنته (نازك)، لم يتردد وطلب منه ذلك مباشرة، فقد قرّبت الصداقة بينهما المسافات، لم يأبه الأستاذ (حلمي) كثيراً بهذا الطلب ولم يتفاجأ ولم تبدو عليه أي علامة من علامات التفاعل!! وقال وهو منشغل بريّ الزهور، لن أجد مثلك لابنتي (نازك)، لكن قبلك حضر لي الكثير في هذا المنزل من أجل هذا الطلب وكانت ترفض، لكن عموماً اذهب وتحدّث معها وأنا موافق على ما تتفقون عليه.

في صباح اليوم التالي ذهب باكراً إلى المصرف وتوجّه مباشرة إلى مكتب (نازك حلمي)، وجدها في قمة السعادة وأخرجت له من حقيبتها بطاقة دعوة زواج ابن شقيقتها(جمال)، قالت له كم كان بودّي أن يكون المرحوم (جمال) معنا في هذا الاحتفال، فهو ليس زواج جمال فقط وإنما هو وفاء للعهد أن أنتظر معه كل لحظة أياً كانت سعيدة أم حزينة، قالت له ذهب جمال وجاء جمال، وسيسكن معنا بأسرته الجديدة في منزلنا، وأطلعته على طلب تقاعد مبكر من

(المصرف) لتتفرغ لجمال وأبيها والأسرة الجديدة، ذكرت له أن حياةً جديدةً خرجت للنور، وطلبت منه أن يصحبها إلى قبر (جمال) في المقبرة القديمة المحاذية للنهر لتخبره بهذه الأنباء السارّة.

خرج من مكتبها وعرف سرّ لامبالاة الأستاذ (حلمي) بطلبه، فهي ما زالت تعيش مع (جمال) حباً ووفاءً ومشاعر ما قطعها الموت والرحيل ولا أعيتها السنوات، هو ذاته ما كان سيفكّر في (نازك حلمي) لولا أنها تشبه (رحاب)، وجد فيها ذات الملامح والشّبه، أو ربما شدّه إليها هذا الوفاء للماضي، هو ما كان يبحث عن (نازك)، كان يبحث عن الماضي القديم، ربما يريد كائناً آخراً يضيفه للدرويش والقبر والجابية.

حرص (عبد الله منصور) على ارتداء أرقى قمصانه الصفراء ليحضر زواج (جمال) الصغير، وجد الحفل كما رواه (الجود الدرويش)، عروس جميلة وسط الحضور تجلس مع زوجها الجديد في مكان اجتهد فيه فنان ماهر بأروع أنواع الزهور الطبيعية التي معظمها من مشتل الأستاذ (حلمي). جاءت (نازك) من وسط الحضور وعانقت العروسين بفرح تحفّه دموع لو نطقت لروت قصة حزينة الأحداث، بدت كأنها أنجزت وعداً مهماً، خرجت من الوسط بهدوء وتابعها (عبد الله منصور)، فإذا هي تذهب في اتجاه النهر مثل ما ذكر(الدرويش)، لكنها كانت تقصد القبر الكامن في أعماقها حياة بكل تفاصيلها، ذهبت من (جمال) الجديد إلى (جمال) القديم المتجدد في دواخلها، جلست على حافة القبر بقرب النهر وكأنها تحكي قصة طويلة وتورد أنباء جديدة، ظل (عبد لله منصور) يراقبها من بعيد، ولما أطالت الجلوس رجع إلى منزله وجهّز حقائب الرحيل ورجع إلى بلدته الصغيرة حيث (الجابية) و(الجود) الدرويش و(القبر) الذي ظل يحمله في دواخله.

-4-

تساؤلات الكوشي

لا أجد سبباً واحداً يجعل العالم يصنّف هذا البلد ويوصمه بأنه فقير، فأعظم نهر في الدنيا يجري عبره من الجنوب إلى الشمال، فيقسّم البلاد إلى شرق وغرب، معظم الحضارات نمت في غرب النهر بينما المدافن والآثار في الشرق، ربما باعتقادهم أن حياةً أخرى تنتظر من هم في المدافن التي بنيت على شكل أهرامات، حوالي مئتين وعشرين هرماً في شمال هذا البلد بناها أجدادهم (الكوشيون)، وكوش هو الابن الأكبر لحام ابن نوح عليه السلام وهو أبو النوبيين في بلاد السّمر وأخ لمصرايم الذي أتى من نسله المصريون القدماء، هو شعب له تاريخه القديم ولغاته وتحدّثت الكتب السماوية القديمة عن كوش وتأثيرها الثقافي والسياسي في العالم.

في وسط هذه المنطقة توجد مدينة (المصورات) القديمة التي يعود تاريخها إلى ما قبل الميلاد، تقع على بعد ثلاثين كيلو متراً تقريباً إلى الشرق من مجرى النهر العظيم، وتقع المدينة داخل سلاسل جبلية لها مدخل واحد، وتوجد فيها بعض آثار المدارس والمؤسسات التعليمية حيث وُجد في الصور على الجدران الأثرية نحوت لطلبة وهم يجلسون إلى المعلم للتدريس، ويبدو أن سكان (كوش) كانوا يبتعثون أبناءهم للدراسة في مدينة (المصورات)، كما يوجد فيها معبد "أبا داماك" وهو عبارة عن سورٍ ضخم يحيط بالمبنى الرئيسي في المصورات يشبه المتاهة يرجع تاريخه للقرن الأول الميلادي، ويغطي مساحة واسعة، وخطة البناء الضخمة المعقدة لهذا المبنى لا مثيل لها في كل الحضارات القديمة، ويعتقد أنه كان قصراً ملكياً لملوك مملكة كوش النوبيين، وتحتوي الآثار على أسس وحوائط وعدد كبير من الأعمدة، وخزائن حجرية وسلالم والعديد من الحوائط القصيرة. كما يوجد في مدينة المصورات الكثير من المنحوتات الخاصة بالحيوانات، ويعتقد أن المباني الأثرية كانت متعددة الاستخدام مثل مقر تدريبي للفيلة لأغراض عسكرية أو مركز عناية طبية، ويبدو أن (المصورات) كانت عاصمة فيها المدارس والمتاجر والمستشفيات ومقر الحكم.

في نهايات فترة الاحتلال الإنجليزي للبلاد ولد حارس المصورات(نعيم طرابيل) في مكان بالقرب من المدينة الأثرية غير مأهول بالسكان، كانت مهنة أسرته مساعدة البعثات الأثرية

الأوربية في التنقيب والكشف عن الآثار، احتفظوا بالحياة البدوية والمساكن التقليدية المعروشة من نبات(الدوم)، ويتنقلون من المصورات إلى مكان أثري آخر قريب هو مدينة (البجراوية) الأثرية التي لا تبعد كثيراً عن المصورات، وتحتوي المدينة على ثلاثة أقسام ملكية، تضم أكثر من 200 هرم تقريباً، كما أن الأهرامات الجنوبية والأهرامات الغربية كانت تستخدم سابقاً منذ القرن الثامن قبل الميلاد تقريباً، ويُعتبر هرم الملكة (أماني شيختو) التي حكمت المنطقة في منتصف القرن الأول قبل الميلاد تقريباً؛ من أهم المقابر في الأهرامات في هذه المناطق القادمة من عمق التاريخ، نشأ البدوي القصير الذكي (نعيم طرابيل) وقد اقترن لقبه بالطرابيل وهو الاسم الذي يطلقه الأهالي المحلّيون على الأهرامات الكثيرة المتناثرة في هذه المنطقة، عمل طرابيل خلال مسيرة حياته مع أعظم الآثاريين في العالم الذين زاروا المنطقة، فأتقن عدة لغات منها الإنجليزية والفرنسية، وكان يفهم اللغة الألمانية لكنه لا يستطع الرد بها، عندما تنظر إلى(نعيم طرابيل) بزيه البدوي وثيابه القديمة وسلوكه البسيط لا تعتقد أساساً أن هذا الرجل يتقن كل هذه اللغات، فهو في حياته لم ينتسب لأية مدرسة للدراسة، ولا يعرف القراءة والكتابة، لكنه يحفظ الكثير من سور القرآن الكريم ويتحدث كل هذه اللغات بلكنة تدهش الأوربيين أنفسهم، كان مرشداً أثرياً بارعاً ملماً بتاريخ البعثات الأثرية التي زارت المنطقة، ويعرف رمزية الصور والنحوت على الجدران، ويحفظ تاريخ الممالك الكوشية، ويعرف أسماء الملوك الذين تحتويهم المدافن، حاول بعض الأوربيين الذين يزورون المنطقة وخلقوا معه علاقة خاصة أن ينقلوه من عامل بسيط إلى رجل أعمال لما لديه من خبرات في هذا المجال لا تتوافر في كثير ممن درسوا علم الآثار والسياحة، لكنه كان سعيداً بواقعه البسيط يرضى بما تجود به عطايا الزائرين المتواضعة، ظل يمارس الإحساس بالفخر وهو يستقبل الزوار ليعرفوا عظمة أجداده، كان يعتبر نفسه امتداداً لهذه المباني القديمة، يحضر باكراً في كل صباح يتفقد المدافن ويزيح عنها الرمال، لم توظفه السلطات ليقوم بهذه المهام، فهو يعتبر ذلك امتداداً لاهتمامات أسرته التي نزحت إلى هذا المكان من قرية (البجراوية) فنشأ هنا لا يعرف غير الآثار والمعابد العتيقة والمدافن الملكية.

ظلّ البدوي البسيط (نعيم طرابيل) محط اهتمام الباحثين والآثاريين الأوربيين الذين يزورون المنطقة، فقد ورث عن آبائه وأجداده المقدرة الكبيرة على معرفة اللغة المروية المندثرة، وهي اللغة التي تَخاطَب بها قدماء (الكوشيين) في المنطقة وقد تحدث بها ملوك وشعب هذه الحضارة وإن لم يكتبوها، كان الأوربيون الذين يزورون المنطقة يعتبرونه معجزة علمية فهو لا يقلّ من وجهة نظرهم عن كبار علماء الآثار في أرقى الجامعات، ويتعاملون معه حسب هذا

الاعتقاد، بينما في نظر الأهالي المحليين هو الراعي البسيط الذي تركت أسرته القرية للسعي وراء سراب في مناطق يسكن فيها الشياطين والجن، فقد كانوا يتجنبون الذهاب إلى مدينة (المصورات) ومدافن البجراوية الملكية لاعتقادهم الجازم أنها مسكن للجن، ويحكون قصصاً عن بعض سكان مناطقهم الذين ذهبوا للمصورات ولم يحضروا إلى الآن، حتى (نعيم طرابيل) نفسه عندما يذهب متسوقاً لقريته المأهولة بالسكان فإنهم يتجنبونه خوفاً من أن يتلبّسهم الجنّ الذي يحمله معه حسب تصوراتهم واعتقاداتهم.

في أحد شهور الشتاء وصلت إلى مدينة المصورات الدكتورة (كاثرين) الأستاذة بقسم الآثار بجامعة درم الإنجليزية ومعها مجموعة من طلبة الدراسات العليا، كان الهدف من البعثة استكمال بعض المعلومات للوثائق الموجودة في جامعة درم عن الحضارة (الكوشية)، وكما هو المعتاد استقبلهم البدوي البسيط (نعيم طرابيل) عند المدخل الطبيعي الوحيد في مدينة المصورات المحاطة بسلسلة جبيلة من ثلاث جهات، وتحدث مرحباً بهم بلغة إنجليزية أدهشت الطلبة، وعندما عرَف أن واحدة من الطالبات من فرنسا كان يترجم ما يقوله لها باللغة الفرنسية، كان منظر ثيابه الرثة وهيئته لا يدل على هذه الطريقة الراقية والمهنية التي تحدث بها، اندهشت البعثة من مستواه أكثر من اندهاشها بما رأته من جدران أثرية ومعابد، قالت الدكتورة (كاثرين) لطلبتها إن (نعيم طرابيل) شخصية غير عادية، فكيف لشخص لم يغادر هذا المكان، أن يعرف كل هذه المعلومات ويُتقن لغات مختلفة وباحترافية عالية، قرّرت أن تبدأ معه تعلم القراءة والكتابة، التزمت هي بجانب اللغة الإنجليزية وكلّفت أحد طلبتها من دارسي اللغة العربية بالعمل معه، ظلّ يمضي النهار مع البعثة معرفاً ودليلاً؛ لآثار كان من الصعب التعرف عليها وحدهم، وفي فترة المساء يتعلّم حروف اللغة العربية والإنجليزية، وفي عام واحدٍ وهي المدة المقررة لجامعة(درم) في البقاء بالمصورات، كان (نعيم طرابيل) يجيد القراءة والكتابة باللغتين العربية والإنجليزية.

انتهت فترة بعثة جامعة (درم) وكان على الدكتورة (كاثرين) وطلبتها أن يقدموا تقريراً علمياً عن إنجازهم في العام الذي منحتهم فيه الجامعة، أقنعت الدكتورة (كاثرين) إدارة جامعتها بتقديم الدعوة إلى (نعيم طرابيل) ليأتي معهم ويكون جزءاً من فريق العمل، كان الطلب غريباً على إدارة الجامعة، ولكن لأن رئيس جامعة (درم) يثق في قدرات الدكتورة (كاثرين) وإبداعها، وكونها واحدة من أميز علماء الآثار في العالم وافق دون تردّد.

سافر البدوي البسيط (نعيم طرابيل) إلى إنجلترا، تخلّص من الثياب البدوية القديمة وارتدى بدلة كاملة، لم يكن الأمر صعباً أن ينصهر في المجتمع الجديد، فهو منذ صغره يعاون البعثات

الأوربية في التنقيب في المصورات، كان يعرف ثقافتهم وأسلوبهم في الحياة، لكنه انبهر بالمباني والحدائق، تملّكه الاستغراب والتعجب من طريقة انسجام الأوربيين السريع مع بيئاتهم الصحراوية، كيف يعيشون معهم في خيام ومباني بدائية مصنوعة من الخشب؟ وهم قد تعودوا العيش في هذه المباني الفخمة! كان يوم تقديم التقرير حدثاً كبيراً في جامعة درم، تحدّثت الدكتورة (كاثرين) للحضور عن معجزة علمية، قالت لهم إن أكبر إنجاز لهذه البعثة أنها أتت بـ (نعيم طرابيل)، حدّثتهم عن مهاراته وقدراته والبيئة التي يعيش فيها، وطلبت منه التحدث فقال: أنا من كوش وهو اسم أطلق من قديم الزمان على بلادي، بدأ الحكم الكوشي في بلاد النيلين بعد انهيار العصر البرونزي، وامتدت سيطرة الملك كاشتا «الكوشي» إلى وادي النيل الأعلى في القرن الثامن قبل الميلاد، وتمكّن خلفاؤه من السيطرة على وادي النيل الأسفل بعد ذلك، أصبح ملوك (كوش) أيضاً فراعنة الأسرة الخامسة والعشرين في وادي النيل لنحو قرنٍ من الزمن، حتى هزمتهم الإمبراطورية الآشورية الحديثة تحت حكم أشور بانيبال، قال للحضور بلغة إنجليزية رفيعة، قدّم (الكوشيون) مساهمة مهمة في الحضارة الإنسانية في ميادين العمارة، والفن، والكتابة، ومن ناحية كانوا حلقة الوصل الثقافية والحضارية بين أفريقيا والعالم العربي والآسيوي. وأثناء عرض التقرير حيث كان يشارك مع أعضاء الفريق في شرح رمزيات صور معبد أبا داماك والنحوت على الجدران، وصور الحيوانات وأنواع المدافن، كان (نعيم طرابيل) نجم اللقاء، فقد مكّنته لغته الإنجليزية المتقنة وتحدثه بالفرنسية وفهمه لمعاني الألمانية من التواصل الممتاز مع الحضور.

أصبح (نعيم طرابيل) بعد عودته شخصية معروفة لدى المهتمين بعلم الآثار في بلده، أصبحوا يقدّمون له الدعوات في جلساتهم العلمية، وصاروا يستعينون به في مناقشاتهم، كانت الهوة كبيرة بين ما يطرحونه وما يعرفه عن بلده، فهو أينما شارك يجد سؤالاً غريباً من وجهة نظره عن الهوية، هم في جامعاتهم وتجمعاتهم المهنية بعد هذا التاريخ الطويل يسألون عن أصولهم هل هي أفريقية أم عربية؟ هذا السؤال الذي لم يستطع العلماء في هذا البلد الإجابة عنه، وتضمينه في مناهجهم الدراسية، فصارت المناقشات عراكاً ثم ثقافة مجتمعية جعلت بعضهم ينتصر للانتماء العربي والآخر للانتماء الأفريقي، وتطور الأمر حتى صارت دلالات التمييز العرقي وشماً في وجوههم عند البعض يسمونها بالمحلية (الشلوخ) تبعاً للثقافات السلبية المكتسبة نتيجة المفاهيم الخاطئة للتاريخ. كان (نعيم طرابيل) يستمع لذلك ويستغرب! فهو منذ نشأته يعرف أنه كوشي، جاء من رحم حضارة مكتملة العمق التاريخي تحتفظ بلغاتها وثقافتها وآثارها، تأثرت بالدين الإسلامي والمسيحي وبالحضارات العربية والعثمانية والبريطانية،

امتزجت مع كل ذلك وكونت إنساناً (كوشياً) جديداً كان نتيجة هذا الانصهار المسنود بتاريخ طويل في فضاء الإنسانية.

قبل أن تحضر الدكتورة (كاثرين) وبعثتها الأثرية من جامعة (درم) ومساعدتها في تعليم (نعيم طرابيل) القراءة والكتابة، كانت الأمور تسير معه بصورة طبيعية، ظلّ يعتقد أنه (كوشي)، وأن البلد الكبير الذي يسكن فيه هو (كوش الكبرى)، وصل إلى قناعة أن عزلته في مدينة (المصورات) وعدم معرفته القراءة والكتابة نعمة كبيرة لم يدركها إلا الآن، كان أهون عليه أن يعيش حياة ذلك البدوي البسيط الذي يستقبل البعثات الأثرية ويعاونها في التنقيب نظير مال بسيط يعينه في معاشه؛ من أن تتكشّف بصيرته على نخب جديدة في بلاده تناقش قضايا حسمها التاريخ، وتقف شاهدة عليها مدن (المصورات) و(البجراوية) واللغة المروية ومدافن الملوك، عندما أصبح يقرأ ويكتب اكتشف أن طلبة المدارس لا يعرفون شيئاً عن (كوش)، وأن النّخب في بلاده تتجادل حول الهوية.

قرّر (نعيم طرابيل) العودة إلى المصورات، والعيش مع الحقيقة بدلاً من هذه التصورات الزائفة التي اكتشفها عندما تأتت له فرصة أن يكون جزءاً من النخب التي تشكل تاريخ وثقافة الشعوب، عاد وخلع ثياب اللقاءات والمؤتمرات والنقاشات العلمية، ولبس ثوبه القديم، وهيأ نفسه من جديد ليعود إلى البدوي البسيط الذي اشتاق إليه، كان أول القادمين إلى مدينة المصورات الدكتور(محمود سنادة) المدير الأسبق لمصلحة الآثار بالبلاد الذي تقاعد منذ سنوات عن العمل، جاء يحمل حقائب متعددة وقاطرة صغيرة تجر منزلاً خشبياً متحركاً، وقال لنعيم طرابيل جئت إلى هنا لأقضي بقية حياتي في (المصورات)، ظل الدكتور(محمود سنادة) ولأكثر من أربعين عاماً مرتبطاً بهذه المناطق الأثرية، أجرى الكثير من البحوث ونشر العديد من الكتب عن الحضارة (الكوشية)، قال لنعيم طرابيل فشِلت كل جهودي في أن تكون هذه الحضارة منهجاً تعليمياً في المدارس، قدّمت اقتراحاً في منابر متعددة أن يعود اسم كوش لبلاد النيلين، لكنني لم أجد غير السخرية والتهكّم وعدم الاهتمام، حاولت مرة أن تكون اللغات (الكوشية) ضمن مقررات طلبة كليات الآداب بجامعاتنا، فوصمت بالرجعية والتخلف، قلت لهم إن هويتنا هي (كوش)، لكنهم كانوا يجهلون التاريخ، لقد سئمت اللقاءات والمؤتمرات التي تتحدث عن الهوية، هم ينظرون إلى النهر ويذهبون ليبحثوا عن الماء في الصحراء، يحملون قيماً ثقافية تشكّلت من حضاراتهم القديمة، ويحاولون استدعاء إطار عرقي جديد، ولا يدرون أن كوش القديمة تشكلت في حضارة جديدة بلحم ودم مؤثرات جعلت منهم عرقاً فريد السمات والخصائص، واصل

الدكتور(محمود سنادة) قصته الحزينة وقال يئِست من أي شيء يمكن أن أفعله وأتيت إلى هنا لأعيش معك في المصورات رمزية أصلي وبلدي.

عاش الدكتور (محمود سنادة) الإداري القديم والباحث المتميز والأكاديمي القدير تلك الحياة البسيطة التي يعيشها (نعيم طرابيل)، ينتظرون البعثات الأوربية، يقضون معها الأسابيع والشهور، ثم تغادر وتأتي بعثة أخرى، عاشا حياة الانتظار والاستقبال والوداع، وصنعا لنفسيهما حياة خاصة بعيداً عن الباحثين عن هويتهم، عاشا مع تاريخهما وحضارتهما.

كانت من عاداتهما أن يجتمعا عند شروق الشمس أمام بوابة معبد أبا دماك، يتناولان الشاي، ويتحدثان عن الأزمة التي جعلتهما يعتزلان الناس ويسعدان أن يكونا في مدينة (المصورات)، لكن في صباح لم تشرق فيه الشمس وهطلت فيه الأمطار الغزيرة، لم يأت الدكتور (محمود سنادة) إلى بوابة معبد (أبادماك)، فذهب (نعيم طرابيل) لتفقده في منزله الخشبي، ليجده مستلقياً على سريره وبجانبه كتابه الأخير(تساؤلات الكوشي)، حاول إيقاظه فلم ينهض، ظن أنه في نوم عميق، وحاول مرة أخرى لكنه لم يستجب، هنا تملّك القلق (نعيم طرابيل)، فتحسس أنفاس الدكتور (محمود سنادة) فلم يشعر بها، تأكد أنه مات، رحل في البقاع التي أحبها وأحّبته، حباً أرهقه طوال حياته لدرجة أنه جاء إلى هنا وأمضى عاماً كاملاً ليعيش مع ماضيه الذي كان يريد أن يشكل ثقافة المستقبل من هذا التاريخ الباذخ، لكن اليأس من تحقيق الأمل جاء به إلى هنا ليختم مسيرة حياته، كان آخر ما قرأه كتابه الجديد(تساؤلات الكوشي)، أسئلة كثيرة تركها ومضى، لعل الأجيال القادمة تجد لها الإجابة.

استعان (نعيم طرابيل) بأهله في القرية القريبة من مدينة (المصورات) ودفنوا عاشق (كوش) داخل السياج العظيم المحيط بالمدينة الأثرية والقريب من معبد (أبا داماك)، مات الأمل الوحيد الذي كان يدّخره، أصبح قبر الدكتور (محمود سنادة) بالنسبة لـ (نعيم طرابيل) مثل معبد آمون وأبا داماك والمعبد الروماني في وسط المصورات، وعندما يُعرف البعثات الأوربية بهم، كان يجعلهم يقفون عند القبر ويحدثهم عن القصة الحزينة لصاحبه.

-5-

حدائق الكــرز

مطار العاصمة الأوربية الجميلة كما المعتاد مكتظ بحركة العائدين، والمسافرين، والمستقبلين، والمودّعين، كان المهندس (سامي الحدّاد)، الرجل الخمسيني الهادئ الوقور في استقبال ابنته الدكتورة (ريم) التي ستعود حيث نشأت في لندن، فوالدها هاجر من بلاده العربية منذ خمسة وعشرين عاماً، كانت باكورة أسرته التي جاء بها إلى هنا ابنته (ريم) الشابة الجميلة الأنيقة التي سافرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية وتعود اليوم متخصصة في طب الأطفال بعد دراستها في جامعة مرموقة، جلسَ المهندس (سامي الحداد) في صالة المستقبلين يتفحص الوجوه القادمة، بعضها ترتسم عليه علامات الانبهار والارتباك، يحمل جوازه وكأنه لا يعرف إلى أين سيذهب؟ فالكثير تنتهي آماله عند هذا الحد، وهو الوصول إلى أوربا من غير تخطيط ورؤية، يظنون أن الأحلام هنا ورودٌ حمراء تنتظرهم عند المطار؟ وهؤلاء أغلبهم من الشباب القادمين من أفريقيا وبعض دول آسيا، والبعض الآخر من القادمين يسيرون بثقة، ولكنها ثقة مملوءة بالحزن المختبئ في نظراتهم، وهؤلاء أغلبهم أمثال المهندس (سامي الحداد) المهاجر الذي أمضى أكثر من نصف عمره في هذه العاصمة الأوربية، والبعض الثالث يسير بسرعة وكأنهم يلحقون شيئاً ما، ولا يحفلون بمن حولهم، وهؤلاء أغلبهم من الإنجليز الذين يعودون إلى أوطانهم عبر هذه الرحلة، سرَحَ المهندس (سامي الحداد) بخياله وتذكر أول قدوم له، فقد كان فعلاً منبهراً من حركة المطار وتنوع الناس وظلّ غير واثق من نفسه؛ حيث ينتظر الركاب ليفعل مثلما فعلوا في تخليص الإجراءات، لكن هجرته كانت مختلفة، فقد جاءت به الصدفة إلى هنا، فهو أول دفعته في كلية الهندسة وبعثت به الجامعة لنيل الماجستير وكان أستاذه مستشاراً لمشروع تطوير مترو مدينة (لندن)، وبعد الانتهاء من الدراسة رشحه للعمل في هذا المشروع الحيوي المهم، ويعتبر الآن من الخبراء في تطوير محطات المترو في بريطانيا.

من بعيد ظهرت الدكتورة (ريم الحداد) ومعها امرأة في نهاية الأربعينيات من عمرها، كانت تجلس في المقعد المجاور لها في الطائرة ودار بينهما حديثُ السفر والتعارف، حيث عرفتا من الملامح أنهما من بلد واحد، وتعملان في نفس المهنة، عانقها بحبّ وشوق فهي البنت

الوحيدة له، تركتها والدتها ورحلت في شبابها في حادث سير أليم وتوفي في الحادث أيضاً ابنه الوحيد، كان ذلك منذ عشر سنوات، لم يأبه المهندس (سامي الحداد) بالمرأة المرافقة إلا بعد أن انتهى من الاستقبال الدافئ الذي ختمه بتجفيف دموع الفرح من مقلتيه، وكانت المفاجأة، إنها المرأة التي يعرفها من صوتها وملامحها ويحفظ طريقة كلامها، وكانت أمنياته الأولى أيام الدراسة الجامعية والتخرج، إنها الدكتورة (سعاد التجاني) طالبة الطب قبل خمسة وعشرين عاماً والاستشارية والأستاذة الجامعية الآن لطب الأطفال في عدد من الجامعات، سلّم عليها بشدة وقال لها إن هذه الصدفة أسعد موقف في حياته، ولولا نظرات الذهول والاستغراب من ابنته الدكتورة ريم لعانقها كما عانق ابنته، فهي لأول مرة تشعر بإحساس السعادة عند أبيها منذ رحيل والدتها وشقيقها، فقد اعتزل الأحاسيس الجميلة وتفرغ تماماً لابنته وعمله، وعاش مع ذكريات أسرته الراحلة، كان الشعور عند الدكتورة (سعاد التجاني) مزدوجاً ومتعدداً، فهي تارة مرتبكة وفرحة، وتارة أخرى متردّدة وحزينة، عاد إليها فجأة ذلك الإحساس المراهق، شعرت بأنها ليست متزينة بالشكل المطلوب، وأخفت بيديها بعض خصل شعرها داخل حجابها، فقد كان يعلّق على ذلك كثيراً أيام الدراسة، ساد بعد ذلك صمت قصير قطعته الدكتورة (ريم الحداد) مرحبة بالدكتورة (سعاد التجاني) وبأنهما على استعداد لاستضافتها، لكنها اعتذرت أنها حضرت هنا إلى مؤتمر لطب الأطفال، ومنظمي المؤتمر في استقبالها بالخارج وهي معهم على تواصل، وانتهى اللقاء بأن تزورهما بمنزلهما في اليوم التالي.

أحسّت الدكتورة (ريم الحداد) بأن هناك شيئاً خفياً لا بد أن تعرفه، فوالدها ظل سارحاً وهو يقود السيارة من المطار إلى المنزل، حتى أنه لم يسألها عن تفاصيل رحلتها، كان صامتاً وكأنه يفكّر في أحداثٍ قديمةٍ، لم تقطع له هذا العيش والسرَحان في التاريخ، لكن عقب وصولهما إلى المنزل تجرأت وسألته عن الدكتورة (سعاد التجاني)، قال لها كنت سأشرح لك قبل أن تسألي، فهي زميلتي في الجامعة كانت الأولى على كلية الطب، وكنت الأول على كلية الهندسة، وظللنا نلتقي في أيام التكريم والاحتفاء بالتفوق، كانت فتاة جادة متفرغة للتحصيل يهابها الطلبة، لكن حدث بيننا تقارب وتواعد بالزواج، كانت علاقة جادة مثل جديتنا في الدراسة، وآمالنا مخططة مثل الفصول في الكتب الأكاديمية، عقب التخرج طلبتها رسمياً للزواج لكن والدها اعتذر بحجة أني خريج حديث ويبدو أن السبب الرئيسي أنني من أسرة متواضعة مالياً، وهو في ذلك الوقت كان رئيساً للغرفة التجارية بالبلاد، وبعد ذلك تزوّجت من والدتك التي كان أهلها جيراننا في الحي، ولم أعرف عنها أي خبر إلا اللقاء بها اليوم.

لم تكن ليلة المهندس (سامي الحداد) مثل كل الليالي في عاصمة الضباب لندن، فقد أسدلت السعادة أستارها عنه منذ الرحيل المفاجئ لزوجته وابنه، كان يشعر أن شوارع لندن الواسعة الخضراء بائسة حزينة، وعندما يهطل المطر يذهب إلى شارع (بوند ستريت)لأن زوجته كانت تحب المطر اللندني وهذا الشارع، ثم يذهب بعد ذلك إلى شارع (العرب) ليتناول(هوت شوكلت) فابنه يحب تناول مشروبه المفضل في هذا الشارع، عاش طيلة سنواته الماضية مع الذكريات الجميلة، ولم يخفِق قلبه بالأمل، ظلّ الأمل الوحيد له ابنته الدكتورة ريم التي نالت اليوم أعلى الدرجات في تخصصها في طب الأطفال وسيحتفل بزواجها الشهور القادمة، كتبت عنه الصحف اللندنية تمجّد نبوغه وذكاءه في تطوير مشروعات المترو، وما كان يسعده هذا الإطراء، كان يعتبر نجاحه الأكبر في هذه الحياة نبوغ ابنته وتفوّقها، لذا أغلق كافة نوافذ الاحتفاء، وأصبح ينظر إليها من خلال تربية وتعليم ابنته الوحيدة، حتى حين كان ينتظر في قاعة الوصول؛ ظلّ خياله يسرح في مستقبل ابنته، وزواجها وأبنائها، وبيتها المرتقب، وحديثه مع خطيبها أنه جهّز الطابق العلوي لمنزله ليكون مقر إقامتهما، بنى مستقبله على هذه الأسرة المرتقبة، وجهّز نفسه لحياة جديدة مع أحفاد يعيدون البهجة للمنزل ويغسلون صور الأسى بلعبهم وشغبهم .

كانت الدكتورة (ريم الحداد) تعرف حجم المأساة التي يعيشها والدها، وهي ذاتها كانت على قناعة أن الدكتور سامي استطاع أن يعوّضها فَقْدَ والدتها في عمر تحتاج فيه كل فتاة إلى والدة تستمع لها، وتتحسّس مشاكلها وتوجّهها، وفي أكثر من مرة اقترحت عليه الزواج وعاهدته أن تكون صديقة لمن يختارها، لكنه ظلّ يرفض هذا المبدأ ويقول لها إنك أميرة هذا المنزل، وستظلين هكذا حتى تذهبين إلى بيت زوجك، ظلّت العلاقة بينهما علاقة صداقة أكثر منها علاقة أبٍ بابنته، يعرف كل محيطها وصديقاتها، حتى خطيبها وزوجها المرتقب كوّن معه علاقة خاصة.

في مساء اليوم التالي كانت ساعات اللقاء المرتقبة، ذَهَبَ المهندس (سامي الحداد) وابنته الدكتورة ريم حيث مكان إقامة الدكتورة (سعاد التجاني)، خرجت من بوابة الفندق بكامل أناقتها، حاولت بكل المستطاع أن تعود كما كانت طالبة الطب قبل خمسة وعشرين عاماً، بدت ملامح الجمال القديمة قوية في طلتها اليوم، وذابت جدّيتها وهي تصافحهما وتنضم إليهما في السيارة لزيارة منزلهما، وفي الطريق تعمّد المهندس (سامي الحداد) أن يزور شارع (بوند ستريت) وأمضوا فيه بعض الوقت، شعر أن الشارع فيه رائحة الاحتفاء، ولمدة طويلة ارتبط

عنده هذا الشارع بالذكريات الأليمة، لكن جلسة اليوم غسلت حزناً دفيناً، وبدّدت كتلاً من مشاعر الأسى التي كان يُحسّها في هذا المكان منذ الرحيل الفاجع.

دَخَلت الدكتورة (سعاد التجاني) إلى المنزل وعلى عكس ما توقّعت وجدته متواضعاً سَمْتُه البساطة، فهي كانت تسمع عن إنجازات الدكتور (سامي الحداد) والكتابة عنه في الصحف اللندنية، لكنه هو ذاته (سامي الحداد) الطالب في كلية الهندسة قبل خمسةٍ وعشرين عاماً، فقد كان يقول في جلساته إن المال ليس الإنجاز الحقيقي للإنسان، ولكن التميز والعطاء والإبداع يظل تاريخاً بعد الرحيل لكل مجتهد، انتهز فرصة ذهاب ابنته لتجهيز بعض لوازم الضيافة، وسألها عن أسرتها، قالت له بابتسامة عنوانها الأسى وربما الحسرة، طبعاً لم أتزوج حتى الآن! وتلك قصة طويلة، فعقِب ما حدث بيننا علمت بزواجك وسفرك وتعمّدت عدم التواصل معك، ولكني ظللت أتابع أخبارك وأسعد بإنجازاتك، تقدّم الكثيرون للارتباط بي، لكن أبي كان يرفض اختياراتي، هو يعتقد أن معظم من تقدم لي كان همّهم المستوى الاقتصادي الذي أعيش فيه ومكانته المالية، علّمته التجارة أن مثل هذه العلاقات تخضع أيضاً للربح والخسارة، ظلّ يتحجّج بأسباب واهية للرفض، فمثلاً تقدم لي زميل في الجامعة ودعوناه لوجبة عشاء، وعند مغادرته قال والدي إن هذا الرجل مستحيلٌ أن يكون زوجك، فهو يأكل بشراهة، ولا يلتزم بالأكل من الطعام الذي أمامه، بل يضايق الآخرين في طعامهم، وليس له برتوكولٌ ولا نظامٌ في الأكل، ولا شك أن حياته كلها مبنية على هذا الشره والأنانية، استمرّت في الحديث وقالت للمهندس (سامي الحداد) لا تستغرب فهناك قصصٌ أغرب من هذه، ففي إحدى المرّات تقدم لي الطبيب النفسي الذي يعمل في المستشفى الذي يشرف على تدريب طلبتي، وحضر إلى المنزل لمقابلة الوالد، وبعد اللقاء قال نفس العبارة، مستحيل أن يكون هذا زوجك، فقد أخرج الثلج من كوب العصير بيده دون استخدام الملعقة، اعتبر ذلك قمة العشوائية، وعلّق أيضاً على عدم انتظام هندامه، قال إن هذا الرجل عشوائي ولن يستطع أن يدير أسرة.

ظلّت تحكي قصصها بأسى وكأنها اليوم وجدَت مصباً لأمواج أحزانها الباحثة عن شواطئ الحقيقة المختبئة في تصرفات والدها الذي كان يرغب لها في زوجٍ بمواصفاته، وكان قد قدِم إلى المنزل ومعه عريس مرتقب، يمتلك والده أكبر مصانع تصنيع وتصدير للدواء، جلس معي وكل حديثه عن أموال وأمجاد وإنجازات والدِه، والفخر والاعتزاز أن والدَه يثق فيه وهو الآن المدير الإداري لهذا المصنع، أجرى بعض الاتصالات الهاتفية أثناء جلستي معه ليوصل لي رسالة قبضته الإدارية على المصنع، فمرة يصيح على أحد الموظفين، وتارة يسأل عن بعض

الشيكات، عقب اللقاء اعتذرت لوالدي أن هذا الرجل أيضاً مستحيل أن يكون زوجي، فهو شاب بدون إنجازات، كل رصيده ثقة والده فيه، يعتقد أن المال كل شيء وهو الذي يجلب السلطة.

قالت الدكتورة (سعاد التجاني) بعد ذلك تكرّرت القصص واللقاءات، والدي يرفض كل من جاء من طرفي، وأنا أرفض كل من جاء من قِبَله، ورغم ذلك فأنا مقدرة إحساسه نحوي، فهو يريد زوجاً لي بمقاييس نظرته التي يعتبرها صحيحة حتى يؤمن لي مستقبلاً سعيداً حسب اعتقاده، ولا أشك أبداً في حبه لي وحرصه على مستقبلي، وهي في تقديري اختلاف النظرة للحياة والتقييم المختلف لأدوات السعادة، كان والدي الذي توفي قبل عامين رجلاً عظيماً أعماه حبه المتدفق نحوي عن الحقيقة، فقد عاش معتقداً أنه لا يوجد في هذه الحياة من يستحق أن يكون زوجي، بدليل أنه لا يتجادل معي عندما أرفض من جاء عن طريقه، كان يتعامل ببرود وكأنه يريد أن أبقى معه بالمنزل بعد رحيل والدتي وزواج أشقائي الثلاثة الذين زوّجهم بمعرفته لبنات أصدقاء له بالغرفة التجارية.

ظلّ المهندس (سامي الحداد) يستمع بعمق لهذه القصص، وقارن الحياة التي عاشتها الدكتورة (سعاد التجاني) بحياة ابنته الدكتورة ريم، نفس الملامح والشبه، فكلاهما فقدتا الأم في مرحلة باكرة، وكلاهما وحيدتا أبويهما، وكلاهما درستا الطب وتفوقتا فيه، الفرق الوحيد أن الدكتور سامي بنى سعادته على مستقبل ابنته وزواجها وأسرتها المرتقبة حتى أنه جهز لها بيتاً داخل منزله قبل الزواج ليكون قريباً منها، قالت الدكتورة (سعاد التجاني) إنها بعد وفاة والدها هاجرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية والتحقت بإحدى الجامعات وبدأت حياةً جديدة وتخلّصت من ذكرياتها المزعجة المرتبطة بقبول ورفض الأزواج، وتحاول أن تبني أمجاداً علمية تضيفها إلى النجاحات التي حققتها في بلدها في مجال تدريس طب الأطفال، ذكرت للمهندس (سامي الحداد) أنها وجدت نفسها هناك، فالمجتمع يتعامل معك بنجاحاتك ونبوغك ولا يأبه بوضعك الاجتماعي، على الأقل تخلّصتُ من الأسئلة المتكررة من صديقاتي وزميلاتي وأهلي عن زواجي والنصح المتكرر منهم كأنني عازفة عن الزواج ولا أرغب في بناء أسرة! فالبعض ينصح بأسلوب الوصاية المفرطة كأني مراهقة صغيرة، وبعضهم ينصح وتشعر في دواخله بفرح مختبئٍ أن هناك شيء يعكر نبوغي المهني والعلمي، حتى أنني صِرْتُ أتحاشى التجمعات التي تشجعهم على هذه الأسئلة.

كانت الدكتورة (ريم الحداد) وهي تعد أطباق الضيافة تستمع إلى هذه القصص، غاصَت في رواياتها وأحداثها، استشعرت هنا عظمة أبيها، ونظرته للحياة من باب سعادتها، وعاشت

إحساس الأنثى الذي تحدثت عنه الدكتورة (سعاد التجاني)، فقد خلعت تدثّر الهيبة والمحاضرات والمؤتمرات والمستشفيات وتحدّثت من أعماقها، لا شك أنها وجدت هنا شيئاً كانت تبحث عنه، وتذكرت لقاء والدها بهما في صالة الوصول، ونظراته للدكتورة (سعاد التجاني)، ولأول مرة شعرت أن والدها ينجذب لأنثى بعد رحيل والدتها، والدكتورة ريم نفسها شعرت بإحساس الأم نحو هذه القادمة الجديدة، لأنها تحب كل ما يحبه والدها، كانت تبحث عن شيءٍ يُسعِدُه بعد أن سَجَنَ نفسه في جدران الألم والحزن إثر الرحيل المفاجئ، ظلّت تلحظ حركات والدها وهو يهيئ المنزل للاستقبال، والابتسامات التي تخفي حباً عميقاً وهو يفتح لها باب السيارة للدخول، وعبارات الاحتفاء الزائدة التي ما تعوّدتها من والدها.

انتهى اللقاء المعطر بعبق الإحساس الجميل، وبقي في المنزل حديث ونقاش من الدكتورة (ريم الحداد) عن الضيفة الجميلة التي زارت منزلهما، وانتهى بسؤال مفاجِئٍ لوالدها، لماذا لا تتزوج الدكتورة (سعاد التجاني)؟!

وقْعُ السؤال كان صعباً على الدكتور (سامي الحداد)، لكنه أحسّ بطعم الارتياح، فابنته بدأت تخطط معه لحياتِه، كما كان يخطط لها، ولا شك أن سؤالها بَنَتْهُ على حيثياتٍ كثيرةٍ وارتياحٍ للضيفة الجديدة، فكرت هي بعقلها، لكن هذا التفكير عزَفَ على الأوتار القديمة لمشاعر والدها الدكتور (سامي الحداد)، هذا اللقاء الذي صنعته الصدفة أعاد النظر في ترتيب حياته، وصل إلى قناعة أن المستحيل في الماضي يمكن أن يتحقق الآن، قال لابنته تحدثي معها أنت، فأنا حدّثتها قبل خمسة وعشرين عاماً من الآن، هي تعرف جيداً ماذا تعني لي، وإن تفرّقت بنا السبل، عندما تَفرِضُ بعض الظروف الفراق، فإن الحب يتحول إلى الانتماء للقيم التي من أجلها تعمّق هذا الإحساس، فعندما أُحِب الجدية والصدق والنبوغ والتطلع إنما أُحِب الدكتورة (سعاد التجاني)، هي ليست مجرد أنثى جميلة، فهي امتداد لمعاني أعيش من أجل تحقيقها، كانت هذه الكلمات كافية أن تطلب الدكتورة ريم عبر الهاتف من الدكتورة (سعاد التجاني) اللقاء في بهو الفندق في اليوم التالي.

في مساءٍ لندنيٍ أنيقٍ والشمس تعلن الغروب، وفي حديقة الفندق الأنيقة المزينة بزهور(الكرز)، كان اللقاء المرتقب، جاءت الدكتورة (سعاد الفاتح) بطبيعتها من غير مكياج فبدت امرأة ناضجة فيها مسحة جمال مختبِئ خلف تقاطيع وجهها الجاد، قالت لها الدكتورة (ريم الحداد) وأنا أنتظرك كُنتُ أتأمل زهور (الكرز) التي تُعطي الناظر جرعات التجديد والأمل، تأتي بداية الربيع لتعلن أن سمات الحياة الاستمرار، وكأنها تقول الدنيا فصول متنوعة، يأتي الصيف فتعطينا الحرارة

الطاقة والدفء، ويحقق لنا الأمان ونحن نختبِئ داخل الغرف والأماكن المغلقة، ثم يأتي الخريف فتهطل الأمطار ويأتينا رزقٌ من السماء، تخضرّ به الأرض، وتنبعث منه الحياة، ثم يأتي الربيع فتنمو أزهار (الكرز) التي تُزين هذا المكان، جئت لأقول لك إننا نحتاجك زهرة (كرز) في منزلنا لبعث التجديد والأمل، كان أبي قد جاء إليكم طالباً للزواج منك قبل خمسةٍ وعشرين عاماً مرّت بفصولها المفرحة والمحزنة، ويعود التاريخ ليجعلني أقوم بهذه المهمة والتي أرجو أن أرجع إلى منزلنا وفي يدي (زهرة الكرز) التي هيّأ والدي موقِعها وهو ينتظرك.

كانت الدكتورة (ريم الحداد) تتحدث والدموع تتساقط من مُقل الدكتور(سعاد التجاني)، فتعددت عندها المشاعر، فهي مرّة تشعر أن التي أمامها بِنتها وهي تدعوها للرجوع إلى أبيها بعد حياة انفصال، ومرة تشعر أنها أمام عقل ناضج يريد رد الجميل لمن ضحى من أجله، جفّفت دموعها وقالت للدكتورة ريم، كنت سأقول لك أعطني فرصة للتفكير، لكن حضورك بنفسك لهذا الطلب أراحني جداً، فأنا أعلم أن الدكتور (سامي الحداد) ربط سعادته بك، وطالما كُنتِ أنت جزءاً من هذا المشروع فأنا أسعد أن أكون زوجة للدكتور (سامي الحداد) وأماً لك وجدة لأبنائك المرتقبين.

غادرت الدكتورة (ريم الحداد) حديقة الكرز بالفندق وهي في سعادة لم تشعر بها من قبل، وكان خطيبها ينتظرها في الخارج فانطلقا إلى شارع (بوند ستريت) واشتريا مجموعة من (زهور الكرز) ودخلا على الدكتور (سامي الحداد) في المنزل، وكانت الزهور التي يحملانها الخبر الجميل الذي ظل ينتظره في صبر يهزمه التوتر.

بعد شهرٍ من هذا اللقاء شهدت حديقة الكرز بالفضاء الخارجي بالفندق اللندني الأنيق زواج الدكتور (سامي الحداد) من الدكتورة (سعاد التجاني)، وعاد الزمان خمسةً وعشرين عاماً، وانتقلت إلى بيت زوجها واشترطت أن تعيش زوجة فقط، دون قيود العمل والارتباطات الرسمية، وتخلّصت من المحاضرات والمؤتمرات واكتفت بالتطوع في الجمعيات التي تهتم بالطفل وصحته، وأعلنت كما تُعلِن زهور الكرز بداية فصل جديد في الحياة، وعاشت كما وعدت الدكتورة ريم الحداد أماً لها وجدة لأحفادها ومستشارة لها في طب الأطفال، وزيّنت المنزل بزهور الكرز التي أعادت إليها حياة كانت قد ظنتها غابت في طيات الزمان.

-6-

ذاكـرة الدرويش

الناس في هذه البلدة الصغيرة يأتون يومياً للسوق الكبير، بسبب وبلا سبب، يشترون بعضاً من احتياجاتهم، ويقضون ما تبقى من الوقت في الأُنس والتلاقي، الأماكن في السوق موزعة حسب الهوى والمزاج، ففي وسطه يوجد مقهى الرياضيين، يأتون إليه للمغالطة والمجادلة في نتائج كرة القدم التي جرَت بالأمس، تجِد فيه اللاعبين والمدربين والحكام والإداريين والمشجعين وبعض الذين يستهوون مجادلات ومناقشات كرة القدم، ويشهد المقهى الكثير من الصفقات لانتقال اللاعبين بين الأندية، عندما تدخل المقهى المستطيل ذا الكراسي الخشبية العتيقة والطاولات المتهالكة والأصوات العالية المتقاطعة، يُخيل إليك أنك في جزء من مساطب المشجعين داخل الملعب، فهم بعد أن يمارسوا كل عمليات النقد للاعبين، وطريقة المدرب في كسْبِ النتيجة وفشل حكام كرة القدم، يأتون صباحاً إلى هذا المقهى لاستكمال ما انقطع من أحداثِ الأمس، ثم ينتظرون وصول الصحف الرياضية نهاراً لتبدأ عمليات النقد والتهكّم ضد الصحفيين الرياضيين، وحده الرجل الأربعينيّ القصير يأتي إلى هنا وهو لا يعرف الفرق بين ضربة الجزاء والضربة الركنية، ولا الفرق بين التسلل والشوط الإضافي، فمهمته التي فرضها على نفسه هي الحضور للسوق والتسكع في المقاهي ومراقبة السيارات الداخلة والخارجة من السوق، أصبح الدرويش(الحاج خراساني) أشهر رجل في البلدة الصغيرة، فاقت شهرته رئيس البلدية ومدير الشرطة والسياسيين وأعضاء البرلمان والمغنين والنشطاء في مواقع التواصل الاجتماعي، اشتهر وهو لا يزاول عملاً ولا يحمل هاتفاً نقالاً، كل حدود معرفته رواد المقاهي وسائقي السيارات الكبيرة، نما جسمه الهزيل وصار رجلاً كبيراً، لكن عقله ما زال ذلك الطفل البريء الذي يفرح بقطعة حلوى، أو دريهمات قليلة، أو وعد بتأمين ملابس العيد.

بعد جلسته اليومية مع الرياضيين في عالمهم الخاص وممازحتهم يذهب إلى مقهى المتقاعدين عن العمل في طرف السوق، وهو مقهى تفوح منه رائحة التاريخ، فقد تم تأسيسه منذ ستين عاماً بالتمام والكمال، تُزيّنه صورة كبيرة لمؤسسه الذي كان نادلاً في سرايات الانجليز إبان احتلالهم لهذه البلدة، هم يأتون إلى هنا لمتابعة أخبار وصول معاشهم إلى المصارف، ويتفقون جميعاً أن الخدمة المدنية تراجعت بعد تقاعدهم عن العمل، ويحكون قصصاً عن هوان

الموظفين وعدم كفاءتهم ومجاملاتهم وجهلهم للوائح، وترقياتهم السريعة التي لا يستحقونها، ظل الدرويش(الحاج خراساني) عضواً أساسياً في هذا المقهى، يعرف رواده وتفاصيل حياتهم، فهم في بعض الأحيان يُكلّفونه بتوصيل بعض طلباتهم لمنازلهم ليتفرغوا للأنس والمجالسة والتهكم على واقع الخدمة المدنية، وعن طريق ذلك عرف أسرهم فأصبح شخصية رئيسية في مناسباتهم فتجده في الأفراح يقوم باستقبال الضيوف وإحضار الطعام، وله قدرة كبيرة على معرفة مواعيد هذه المناسبات وإذا غاب عن واحدة منها فإن السبب عادة يكون وجوده في غرفة مرضى (الأزمة) في مستشفى البلدة حيث يعاني من هذا المرض منذ سنوات، وفي المستشفى أيضاً خلق طقساً من الأنس مع الأطباء والممرضين وحتى زملاء المرض الذين يعرفهم جميعاً ويزورهم في منازلهم، كان رواد مقهى المتقاعدين يُهدون له علاجات مرض (الأزمة) التي يجلبها لهم أبناؤهم من (بخاخات) وغيرها، فيهدي أغلبها لهؤلاء الزملاء.

خلق الدرويش(الحاج خراساني) علاقة خاصة مع سائقي السيارات الكبيرة العاملة في مجال نقل البضائع ومواد البناء، وكذلك سيارات الأجرة الصغيرة للركاب، فرغم أنه لا يعرف القراءة والكتابة ولم يرتاد المدارس للتعليم، إلا إن له موهبةً أشبه بالمعجزة، فهو يحفظ كل أرقام لوحات السيارات العاملة في بلدته والمناطق المجاورة، وله معلومات وافرة عن كل سيارة، يحفظ اسم السائق، والعبارات المكتوبة فيها، حيث يكلّف الناس بالقراءة ثم يقوم بحفظ رسم الحروف، وعندما تظهر السيارة من بعيد وتسأله عنها، فإنه يجيبك على الفور برقم اللوحة واسم السائق والعبارات المكتوبة فيها، كما أنه يعرف تداول بيع السيارة لأكثر من فرد، فيقول لك إن هذه السيارة كانت ملكاً لفلانٍ وباعها لفلانٍ وهكذا، ولا يخطِئ في ذلك أبداً، فحياته كلها أمضاها في مواقف السيارات والتعرف على سائقيها وحفظ أرقام لوحاتها ومعرفة العبارات المكتوبة فيها. كان سائقو السيارات في المواقف أثناء وقت فراغهم يتخذونه مادة للأنس ويختبرون قدراته، ويصفون له سيارة يعرفون أنها خارج الخدمة، فكان يجيبهم أنها تقف معطلة في المكان الفلاني وأن الميكانيكي فلاناً هو الذي يشرف على صيانتها، ولا يخطِئ في ذلك أبداً.

ظل مكان ترخيص السيارات بالبلدة من الأمكنة المحببة له، فهو يزوره بصفة دورية ويلتقي هناك بالسائقين ومساعديهم ورجال شرطة المرور الذين كانوا يهتمون به حد الاحتفاء فهو عندهم أشبه بجهاز الحاسوب الموجود داخل مكاتبهم الذي يحفظ معلومات سيارات البلدة.

أغلب أهل البلدة كانوا ينظرون إليه على أنه شخص بلا أهمية، يتلذذون فقط بمقدِرته الفائقة في معرفة هذه المعلومات ويجعلونها مادة للضحك والأنس والتندر، إلا العقيد (عارف النمر) مدير

شرطة المرور بالبلدة، فقد كان يعتقد أن الدرويش (الحاج خراساني) شخصاً استثنائياً، وكان يقول لعساكر شرطة المرور لولا أن هذا الرجل لا يعرف القراءة والكتابة لكان أكفأ من يعمل معنا في شرطة المرور.

في إحدى المرات وصل بلاغ إلى شرطة مرور البلدة بوجود حادث على الطريق السريع عند مدخل المدينة وللأسف توفّيت طالبة كانت تقطع الطريق وهرب السائق، هرع العقيد (عارف النمر) ومعه دورية من الجنود إلى المكان ولم يجدوا أي أثر للسائق الهارب إلا مرآة السيارة الجانبية التي اصطدمت بكتف الطالبة الضحية وبقِيّت في موقع الحادث.

أمر العقيد (عارف النمر) جنوده بالبحث عن الدرويش (الحاج خراساني) وهم يعرفون الأمكنة التي يرتادها، ووجدوه داخل مباني نقابة سائقي التاكسي يتناول معهم طعاماً، فأخذوه إلى موقع الحادث وعرضوا عليه المرآة التي وجودها، فقام بتقليبها ووجد مكتوباً عليها بالخلف (أجمل خبر) فقال لهم على الفور إن هذه المرآة تخص سيارة السائق فلان، وعندما بحثت الشرطة عن السائق الهارب وجدته في مكان لزينة السيارات يشتري مرآة جديدة فتم القبض عليه.

كان للدرويش(الحاج خراساني) معجزة أخرى، فهو يحرص على أن يكون موجوداً في مقهى المتقاعدين وقت نشرة الأخبار في الإذاعة المحلية ليستمع من راديو المقهى إلى أخبار الوفيات التي كانت سمة تميز الإذاعات، كان يحفظ اسم كل من مات ويحرص على أن يكون موجوداً أثناء التشييع والدفن، ويحفظ أمكنة القبور، لدرجة أن أقارب المتوفين يستعينون به لمعرفة أماكن قبور ذويهم، والغريب في الأمر أنه يعرف أسماء المتوفين لعشرات السنوات الماضية، ويحفظ اسم المذيع الذي قام بإذاعة اسم المتوفى، حتى أن هناك مذيعين تركوا المهنة ونسيّهم الناس لكنهم ظلوا موجودين في ذاكرة (الحاج خراساني)، هو الآن يحفظ أسماء من هم في مقبرة البلدة وأماكن دفنهم تماماً مثل معرفته أرقام لوحات سيارات البلدة والعبارات التي قد تكون مكتوبة عليها، وكان يتعمّد أن يضع بعض العلامات على قبور سائقي السيارات، وعند دفن كل ميت ظل يزورهم وفاءً للأنس والمجالسة في مواقف سيارات البلدة، وكم من مرة استعانت به منظمة إكرام الموتى في تأهيل المقبرة وتنظيم الشواهد فهو أرشيف نادر لمعلوماتها.

صار (الحاج خراساني) يمثل قيم التسامح والتعايش والبساطة، وتحول من درويش يطارد سيارات النقل ليحفظ أرقام لوحاتها إلى شخصية مشهورة في البلدة، يتداول الشباب صوره وقصصه في مواقع التواصل الاجتماعي ويتبادلون نوادره وحكاياته، وتنتشر صوره وهو يجالس السائقين ويتابع نشرة الأخبار ليحفظ أسماء المتوفين، أصبح مادة دسمة لهواة الشهرة العبثية، فأصبحوا يسجلون قدراته في الحفظ ويختبرونه في ذلك ثم ينشرون أحاديثه في حساباتهم الافتراضية،

يفعل ذلك بعفوية ويعتبره جزء من المؤانسة التي يمارسها يومياً في مقهى الرياضيين ثم مقهى المتقاعدين وأصدقاءه في غرفة مرضى (الأزمة) بمستشفى البلدة، ضايقه هواة التصوير العشوائي وطالِبوا الشهرة وأصبحوا يطاردونه كما يطارد السيارات لحفظ أرقام لوحاتها ومعرفة العبارات المكتوبة فيها، وصار أصحاب المطاعم الصغيرة والمقاهي يستجدونه لأخذ الصور وهو يجلس في هذه الأماكن ليصمموا إعلانات تجذب لهم الزبائن. أصبح الدرويش (الحاج خراساني) الشخصَ الوحيد في البلدة الذي يقدم خدمات جليلة دون مقابل، فالشرطة تستعين به للوصول إلى مجرم هارب من العدالة دون مقابل، ولجنة المقبرة تستعين به في التأهيل والتنظيم دون أجر، والمشاهير في مواقع التواصل الاجتماعي يطاردونه في أمكنة تواجده ويلتقطون معه الصور وينشرونها جلباً للمال في مواقعهم الافتراضية الخاصة، هو يفعل ذلك ولا يعتقد أنه يقدم خدمة للغير، لم يُسعِفْهُ تفكيره البسيط في الحياة أن يحول مهاراته إلى تجارة رابحة، وقتَلَهُ تصوير المجتمع السلبي له على أنه درويش سائح في الأرض لا هدف ولا مطامع له، كل حدود تفكيره مقهى المتقاعدين والرياضيين ودار نقابة سائقي التاكسي وغرفة مرضى (الأزمة) بمستشفى البلدة والمقبرة ومواقف السيارات وساحة ترخيص المركبات.

سَئِم الدرويش حياة المطاردة وكَرِهَ الصور والأحاديث الموثقة المسجلة معه التي تختبر قدراته في حفظ أرقام لوحات سيارات الأجرة، كان يعيش في هدوء مع نفسه قبل أن تجتاح هذه الوسائل الاتصالية الجديدة بلدته الصغيرة، فأصبح الناس يهتمون بتصوير الحدث أكثر من اهتمامهم بالحدث نفسه، فقد وقفوا قبل أيام يصورون مركباً تغرق في وسط النهر دون أن يفكروا في طريقة إنقاذ من هم على المركب، غرق أغلبهم وصاروا صوراً في مواقع التواصل الاجتماعي، وإذا حدث شجار بين فردين، فإن كل واحد يخرج جواله للتصوير دون أن يكون له دور في فض النزاع، حوّلت هذه الأجهزة الصغيرة الدرويش(الحاج خراساني) من رجل بسيط يعيش مع نفسه وسط المقاهي ومواقف السيارات إلى إنسان انطوائي يبحث عن الأماكن الهادئة التي يجلس فيها مع نفسه بعيداً عن التصوير والأحاديث المكررة ومحاولة اختبار مهاراته لصنع الدهشة في المواقع الافتراضية للمشاهير لزيادة عدد المتابعين لهم.

ذاتَ صباح خَرَج الدرويش(الحاج خراساني) يبحث كعادته عن مكان آمن بعيداً عن المقاهي والمواقف، وصادف سيارة أجرة كبيرة يعرف سائقها متجهة إلى قرية (الوادي السعيد) وهي قرية نشأت قبل عشرين عاماً تقريباً أسسها أحد حفظة القرآن الكريم، قال إن شيخه في شرق البلاد أمره أن يهاجر إلى مكان بين جبلين يطل على نهر صغير، وظل لسنوات يبحث عن هذا المكان حتى وجده، وبعد ذلك بدأت هجرات طلبة القرآن الكريم له، فبنى مكاناً منفصلاً للطلاب،

وآخر للطالبات وسط القرية وبينهما مباني المتزوجين، وكان إذا أتم أحدهم حفظ القرآن الكريم انتدبه لتأسيس قرية جديدة في هذه الأمكنة الخالية من السكان.

ركب الدرويش مع السيارة المتجهة إلى الوادي السعيد، وكان شيخ القرية قد أسَرّ لكبار طلابه أن الوادي السعيد تستقبل اليوم رجلاً مباركاً صالحاً من أهل الجنة، رأيته في المنام عدة مرات، لكن بالأمس شاهدته في منامي وسطكم وهو يحمل مسبحتي البيضاء، بعد ساعات وصلت السيارة إلى الوادي السعيد، وكان السائق يعتقد أن (الحاج خراساني) سيرجع معه، فقد تعود أن يرافق كثيراً سائقي هذه السيارات ثم يعود إلى بلدته، لكن السائق فوجِئَ بالاستقبال الكبير من طلبة القرآن الكريم للحاج خراساني، وذهبوا به إلى شيخ القرية الذي أجلسه بجانبه وأهداه مسبحته البيضاء، وتحقق المشهد الذي رآه بالأمس.

قرر الدرويش (الحاج خراساني) أن يكون أحد سكان قرية (الوادي السعيد)، فقد وجد احتفاءً من نوع خاص لم يجده في بلدته، فالكل يعتقد أنه رجل صالح مبارك ويعاملونه بكثير من الحب والود والتلطف، ويعتبرون مهاراته في حفظ أرقام لوحات أرقام السيارات والعبارات المكتوبة فيها بالرغم من أنه لا يعرف القراءة معجزة ربانية وهبها له الوهاب، لا يوجد هنا مشاهير يطاردونه، ولا أجهزة تصوير تقلق جلساته الهادئة، وجد هنا ألقاباً جديدة، فطلبة القرآن يطلقون عليه الشيخ، وشيخ القرية يطلق عليه لقب (المبروك)، والقادمون إلى قرية الوادي السعيد من المريدين يعتبرونه ولياً من أولياء الله الصالحين فيطلبون منه الدعاء لهم.

بدأ (الحاج خراساني) حياة جديدة في قرية (الوادي السعيد)، وظل يجلس يومياً عند مدخلها يراقب السيارات المارة ويحفظ أرقام لوحاتها ويسأل عن العبارات المكتوبة عليها وأسماء السائقين ومساعديهم، وظهرت عنده موهبة أخرى وهي حفظ أسماء كل الزائرين للشيخ من خارج القرية وأسماء الأماكن التي جاءوا منها، حتى صار ذاكرة وأرشيف شيخ قرية الوادي السعيد الذي اعتبر ذلك جزءاً من بركات (الحاج خراساني)، وتبدلت الأماكن التي كان يرتادها، صار يرافق الشيخ في تفقده لطلاب القرية، ثم يجلس عند المدخل يحفظ أسماء القادمين الجدد ويراقب السيارات العابرة، أما مرض (الأزمة) الذي كان يضطره أن يذهب إلى المستشفى بين كل حين وآخر فقد غادر رئتيه منذ أن قدم إلى هنا.

نسِيّه معظم الناس في بلدته، واختفت صوره من مواقع التواصل الاجتماعي وعجِز مشاهير الإعلام الافتراضي عن الوصول إليه، كان الوحيد الذي يزوره العقيد (عارف النمر)، فقد ظل يعتقد كما يعتقد شيخ قرية الوادي السعيد أن (الحاج خراساني) شخصية نادرة، لم يستطع المجتمع أن يوظفها ويستفيد منها، عرفه فقط شيخ قرية (الوادي السعيد) وسكانها.

-7-

ظلام يلتهم المصابيح

بعيداً عن أوطانهم يحاولون استدعاء طقس لحياتهم الخاصة المفقودة، تعدّدت أسباب هجرتهم إلى المدينة الخليجية الخضراء؛ ذات النخيل السامق والأرض المنبسطة المسترخية على تاريخ ينبعث من أزقتها وشوارعها ومقابرها القديمة، فتشعر أنك رجعت إلى الماضي بناسه وبناياته، الناس فيها بسطاء حدّ البساطة، يتعايشون بأريحية رغم تعدد مذاهبهم الفكرية وتنوعهم، وصنعوا من المدينة الجميلة مجتمعاً مدنياً متجانساً، يجتمع بعضهم مساءً في مقهى (الخشب) وسط المدينة، يتناولون المخبوزات التي تصنع بعجين التمر، ويتبادلون أخبار بلادهم، الشتاء في المدينة الخليجية ملهم للإبداع، والصيف فيها فترة للاسترخاء، تشعر في بعض الأحيان أن المدينة الخليجية قرية صغيرة، يتعاظم هذا الإحساس عندما تزور سوقها الشعبي المليء بالأدوات التراثية، وجلسات التجار أمام متاجرهم في جماعات وهم يتناولون القهوة بالتمر، ويستنشقون عبير فضاءات المدينة الرحبة المستوعبة للمهاجرين الذين صاروا جزءاً من هذا المجتمع.

قبل خمسة وعشرين عاماً جاء الدكتور (مصباح التوم) إلى هذه المدينة من بلاد النيلين، كان يقضي الأوقات الطويلة بمستشفى المدينة الخليجية متابعاً للحالات الخاصة، وظل يعطي الصغار من المرضى ومرافقيهم كل أحاسيسه الإنسانية الدفاقة فهو متخصص في طب الأطفال، ولا يتحرج أن يعودهم في منازلهم بعد مغادرتهم المستشفى، ويتصل بعد ذلك بالهاتف مجسداً أروع الإحساس بالآخر، ويقول الأهالي في المدينة الخليجية، عليك فقط أن يشاهدك الدكتور (مصباح التوم) من بعيد وسيأتي إليك، ويقدم لك كل خدمة، لن يسألك من أنت؟ ولا من أين أتيت؟ سيسألك فقط ماذا تريد؟ سيقدم لك كل الخدمات مباشرة مع ابتسامة عريضة باستقبال رائع مصبوغ بأريج المدينة النبيلة.

لم يكن الدكتور (مصباح التوم) سفيراً لبلده بالمدينة الخليجية فقط، بل كان نصيراً لكل مريض وأستاذاً لمعظم أطباء الأطفال الذين تعاقبوا على مستشفى المدينة الكبير، ولن تمر على طبيب بالمدينة إلا ويذكر بالخير كله اسم الدكتور (مصباح التوم)، حكى أحد أهالي المدينة الخليجية

أن الدكتور (مصباح التوم) كان يحضر إليه في منزله ويطلب منه مرافقته إلى المطار لعله يجد أحداً من بلاده يبحث عن دار أو مكان، ويقول كثيراً ما نأتي بضيوف لا نعرفهم إلى منزله بسبب أن مدنهم بعيدة عن المطار فيقضون الليل معه ثم يغادروا.

كان الدكتور (مصباح التوم) يجمع أبناء وطنه بالمنطقة في فترات متقاربة في مساءات للأنس واللقاءات الجميلة يتبادلون الأخبار ويعمقون الود والمحبة.

في احتفال وداعه وعند مغادرته جاء أهالي المدينة الخليجية من كل أرجائها، كان احتفالاً شعبياً حقيقياً، تحدث عبره بعمق ممثل الأهالي وقال إننا نفتقد اليوم شجرة باسقة في بستان المدينة، ظلّت تقدم العطاء لأكثر من خمسة وعشرين عاماً؛ هنا يتذكر المحتفلون صورة تلك المرأة وابنها التي أصرّت أن يكون ضمن فقرات الاحتفال تعريفاً بموقف إنساني للدكتور(مصباح التوم)، فقبل عشرين عاماً من الآن استقبل المستشفى هذا الابن وكان في مرحلة متأخرة من المرض، ظلّ الدكتور(مصباح التوم) مرافقاً ملازماً له وكان يُطمئِن الأم أن ابنها برعاية المولى سيُشفى وسيصبح طبيباً في هذا المستشفى، وتشاء الأقدار أن يُشفى الابن ويدرس الطب ويصبح طبيباً في المستشفى ذاته، ويشرف الدكتور (مصباح التوم) على تدريبه، إنها صور قليلة من (ألبوم) مشاهدَ متنوعة من القصص الإنسانية التي تركها هذا الطبيب الإنسان المتفرد الخصال.

كانت سيارة الدكتور (مصباح التوم) إسعافاً متحركاً، فيها معظم معينات الإنقاذ ولا تخلو من أدوات الفحص الرئيسية مثل السماعة الطبية وميزان ضغط الدم وغير ذلك، ظلّ يحمل هذه الأدوات معه في حلّه وترحاله، لا يتبرّم أن يقدم الاستشارة الطبية في أي مكان، عندما يشتكي الصغار ويقلق الكبار ما كان أحد يجد العناء في استدعاء الدكتور (مصباح التوم) فيكون في لحظات أمام داره، كان يسعد بذلك ويفرح، هوايته أن يقدم الخير للناس ويرسم البسمة على الشفاه.

عاد الدكتور(مصباح التوم) إلى بلاده بعد خمسة وعشرين عاماً يحمل خبرة طبية ومعاني إنسانية وقصصاً من العطاء، كانت الآمال عنده مشرعة أن يغرس ذات شجر العطاء في وطنه، فذهب للبحث عن وظيفة في المستشفى الحكومي، لكنه ظلّ يتردد على مسؤولي التوظيف شهوراً حتى تلقى منهم اعتذاراً رسمياً أنه يصل العام القادم إلى سن التقاعد ومن المستحيل حسب نظم الخدمة المدنية تعيينه، طلب منهم أن يعمل متطوعاً دون راتب فاعتذروا أيضاَ،

بحث عن زملائه وأصدقائه القدامى فوجدهم خارج أطر القرار الإداري، فالترقيات وتولي المناصب لا تتم بالخبرة والعمل الطويل، وجدَ بعضهم أنشأ عيادة كبيرة وتفرغ لها، ولا يستطيع المرضى مقابلتهم إلا بعد جهد ودفع أموال طائلة، وهو ذاته حاول مقابلتهم في عياداتهم المكتظة ولم يستطع. وجدهم يغوصون في عالم المرضى والعيادات الخاصة والأموال والشهرة التي صنعوها بالظهور في الفضائيات وتصنّع السلوك الإنساني وتوزيع بطاقات المقابلة المجانية للمتصلين الباحثين عن علاج، والبعض الآخر من زملائه هاجر باكراً من الوطن وليس في نيتهم العودة، منهم من أخذ جنسيات البلاد التي استقروا فيها، ولا يفكرون في العودة مجدداً.

حاول الدكتور (مصباح التوم) أن يستأجر عيادة في الشارع الشهير لكبار الأطباء، فتفاجأ بالأموال الطائلة لقيمة الإيجار، حتى إن رضيّ بهذه المبالغ فقد كان من الصعب وجود عقار خالٍ في هذه الشارع المليء بالعيادات والصيدليات ومواقف الإسعافات وسماسرة العلاج، وتكمن المشكلة أن عقلية الناس تشكّلت أن أمهر الأطباء يتمركزون في هذه المنطقة، فأصبح منصة دعائية مجانية لكل طبيب يستطيع أن يحصل على عقار في هذا الشارع، وصار العلاج في هذا الشارع يعتمد على الأسماء الكبيرة والشهيرة، تماماً مثل كرة القدم والسينما، وأصبح صغار الأطباء يعملون تحت لافتات الأطباء الكبار مثل مكاتب المحامين، وغابت الطبقة الوسطى في مجتمع الأطباء، فإما أن يكون الطبيب غنياً أو فقيراً أو مشهوراً أو مجهولاً يطارد الشهرة.

وصل الدكتور (مصباح التوم) إلى قناعة أن هذا المجتمع المهني الذي تشكل حديثاً لا يتسق مع مبادئه، فقرر فتح عيادة في حي شعبي في طرف المدينة، واستأجر عقاراً متواضعاً، واستعان بأحد المساعدين الطبيين من المنطقة ليساعده في عمله، وأعلن عن أسعار رمزية للمقابلات العلاجية تكاد تكون مضحكة إذا ما تم مقارنتها مع أسعار الشارع الشهير للأطباء، وقال للمساعد الطبي الذي يعرف الأحوال الاقتصادية لأهالي المنطقة؛ إذا وجدت شخصاً شعرت أنه لا يستطيع دفع هذا المبلغ الرمزي فأدخله مجاناً.

كانت المفاجأة غير المتوقعة أن العيادة الجديدة لم تجد التجاوب من الأهالي الذين يصرون على معالجة أبنائهم في الشارع الشهير وبمبالغ طائلة يجدون صعوبة في الحصول عليها، فهم يعتقدون أن الطبيب غير الماهر هو الذي يختار هذه المناطق الطرفية ليعمل فيها، كما يتصورون أيضاً أنه كلما زادت الأموال التي يطلبها الطبيب كلما عبّر ذلك عن كفاءته وخبرته، حتى القليلون الذين حضروا إلى العيادة كانوا عندما يخرجون يعرضون الوصفة الطبية على المساعد الطبي بالخارج ليطمئنوا أن العلاج صحيح، فهم يثقون فيه أكثر من ثقتهم بهذا الطبيب

الذي لم يستطع أن يجد مكاناً في الشارع الشهير، وجاء إلى هذا المكان الطرفي ليمارس تجاربه على أطفالهم وفق معتقداتهم.

فسّر الدكتور(مصباح التوم) عدم حضور المرضى إلى عيادته بأنهم ربما عجزوا عن دفع الرسوم الرمزية للعلاج، فأعلن أنه ولمدة سيكون العلاج مجاناً خدمة لأهالي الحي الطرفي، وهنا كانت الكارثة، حيث لم يحضر أي مريض منذ أن تم الإعلان، فتأكدت شكوكهم أن هذا الطبيب لم يجد أي مكان يستوعبه، وهذه طريقة ساذجة لاستقطابهم وفق تصوراتهم، فهربوا من العيادة حتى لا يغامروا بأرواح أطفالهم كما يعتقدون، حكوا عنه قصصاً تؤكد أنه يطارد المرضى من وجهة نظرهم، فقد كان يقف ويستقبلهم وهم يدخلون عليه بابتسامة عريضة ويهدي الأطفال قطعاً من الحلوى، ويمزح معهم، واعتبروا ذلك نوعاً من الاستدراج والتسويق، فهم قد اعتادوا على الصورة النمطية للطبيب الصارم الذي يهاجم الأم ويتهمها بإهمال طفلها، ولا يبتسم وهو يكتب الوصفة الطبية، أما أن يقف الطبيب من مقعده ليصافحهم فتلك كانت علامات التأكيد على عدم تمكنه من عمله ومحاولة تغطية ذلك بالاحتفاء والمزاح مع المرضى ومرافقيهم.

من يقنع هؤلاء أن الدكتور(مصباح التوم) ترك المجد والاحتفاء والمال والتاريخ الناصع ليأتي إليهم لإحساسه أنه قصر في خدمة وطنه، فقد ظل مغترباً لمدة ربع قرن، لم يستطع من خلالها حسب تصوره خدمة وطنه بالطريقة التي يتمناها، وظل يحاول صنع طقس للوطن من خلال زياراته لأبناء بلده في منازلهم وتقديم الخدمة العلاجية لهم، وذهابه إلى المطار ليكون منزله بديلاً للفنادق، تجده في المدينة الخليجية مع أبناء وطنه في تجمعاتهم الاجتماعية والرياضية والثقافية بزيه الوطني، لم يمنعه هذا الاندماج الاجتماعي أن يطور من مهاراته فكان الطبيب المتميز في طب الأطفال والمشارك في المؤتمرات الدولية بأبحاث في غاية الأهمية لفتت أنظار مراكز البحث العالمية فكانت تقدم إليه الدعوات للمشاركة في محاضرات في كبرى الواجهات الدولية المهتمة بطب الأطفال، الكثير من كليات الطب في العالم تدرّس في مناهجها الكتب التي قام بتأليفها والأبحاث التي أنتجها، كانت الدولة الخليجية التي يعمل بها قد عينته مشرفاً على المجلس الذي يجيز درجات التخصص في طب الأطفال لسنوات عديدة، مجرد وجوده في أي تجمع مهني كان حدثاً فريداً، التهم ظلام الواقع مصابيح الأمل عند الدكتور(مصباح التوم)، فاختبأ هذا التاريخ وسط أوهام مزيفة صنعها شارع الأطباء الشهير.

بعد شهور من العمل في الحي الطرفي وصل الدكتور (مصباح التوم) لقناعة أن هذا المكان غير مناسب لعيادته الجديدة، لكنه ما كان يعرف السبب، حتى صارحه المساعد الطبي عندما

تيقن بالنوايا النبيلة له، أن الأطباء الذين يعملون في مثل هذه الأحياء دوماً من المبتدئين أو الذين فشلوا في الحصول على رخص الممارسة الطبية من الجهات الرسمية، أو الذين لديهم تاريخ في الأخطاء الطبية، فهم يأتون إلى هنا ليصبحوا بعيداً عن أنظار جهات الرقابة الطبية، لذا فإن الكثير من الأسر تعتبر مجرد حضورهم إلى هنا نوعاً من المغامرة.

لم تشفع الشهادات العلمية والخبرات الطويلة للدكتور (مصباح التوم) أن يكون طبيباً يثق فيه الناس في الحي الطرفي، فأغلق العيادة وغادرها وفي قلبه حزن وأسى، ليس لفشل مشروعه الخاص، وإنما بسبب هذا التشكيل الخاطئ للمجتمعات البسيطة والفقيرة نحو شخصية الطبيب. كانت كليات الطب في عهدهم عند الدراسة تنتدبهم إلى المناطق الريفية فيعملون فيها، وتترسخ الصورة الذهنية عن الطبيب أنه إنسان عادي من فئات المجتمع المختلفة، لتتكسر الحواجز ويتشكل الطبيب نفسه بالثقافات المحلية، تلك كانت المدارس المنهجية التي تخرج منها الدكتور (مصباح التوم) وجعلته اجتماعياً فريداً يذهب إلى المطار ليتنظر قادمين لا يعرفهم في صالات الوصول في مطار المدينة الخليجية، ويذهب بهم إلى بيته بدلاً عن النزل والفنادق.

أمضى الدكتور (مصباح التوم) عاماً كاملاً لم يمارس فيه مهنة الطب، فالجهات الرسمية رفضت تعيينه بحجة أنه قارب سن التقاعد عن العمل، والأحياء الطرفية عزفت عن معاودة عيادته لاعتقادهم أنها نقطة انطلاق المبتدئين والهاربين من أجهزة الرقابة الطبية، ومن الصعب عليه وفقاً لمبادئه أن يكون جزءاً من الشارع الطبي الشهير حيث المتاجرة بالمرضى وحصد الأموال منهم والتعامل معهم كأنهم سلعة.

لم يكن أمام الدكتور (مصباح التوم) خيار سوى التفكير في العودة مجدداً إلى المدينة الخليجية حيث تاريخه ومجده وطلابه والناس الذين يثقون بمهاراته، كان قراراً قاسياً بعد احتفالات الوداع وكلمات الاحتفاء وسرد القصص عن عطائه ونبله وزهده، كان يريد لحياته في المدينة الخليجية أن تنتهي بهذه الصور الرائعة لتبقى تاريخاً ناصعاً، بدأ اتصالات العودة ووجد ترحيباً كبيراً وصور له زملاؤه لافتة مكتبه التي لم يتجرأ أحد أن ينزلها من غرفته بالمستشفى.

بدأت إجراءات رحلة العودة للدكتور (مصباح التوم) لكنه لم يتمكن من السفر لأن العالم أغلق المعابر الجوية نسبة لتفشي فايروس (كورونا)، فأغلقت العيادات أبوابها ودعت وزارة الصحة في بلاده جميع الأطباء للتطوع في المستشفيات التي اكتظت بالمرضى، فتطوع الدكتور (مصباح التوم) في المستشفى الكبير المقابل لشارع العيادات الشهير، ورغم الحزن والأسى وبشاعة الموت إلا أن الدكتور (مصباح التوم) وجدها فرصة لتحقيق الهدف الذي جاء من أجله، لم يغادر

المستشفى منذ إعلان حالة الطوارئ الطبية، وفي وقت وجيز أصبح المخطط والمنفذ الأول للتعامل مع المرض في المستشفى الكبير، التزم معظم أطباء الشارع الشهير منازلهم، وأصبح الدكتور (مصباح التوم) يدير صغار الأطباء والمساعدين والممرضين، في فترة وجيزة برز اسمه كبيراً لحرفته العالية في التعامل مع المرض، وصار قائداً طبياً للجهات التي منعت تعيينه، وشاهد الكثير من سكان الحي الطرفي في العنابر وهم يستجدون علاجه، استغربوا أن هذا المنقذ الكبير هو ذاته الذي هربوا منه في عيادته البائسة في حيّهم الطرفي، لم تمنعه فاجعة الوباء من نثر الأمل والتودّد والمزاح مع المرضى، ظل يُعدّ التقارير اليومية ويرسلها للجهات الرسمية في وقت هرب فيه الكثير من كبار الأطباء وتسوروا منازلهم، باتت عيادات شارع الأطباء الشهير خاوية، فمثل هذه المواقف تحتاج للخبرة والإدارة والتوجيه وقبل ذلك التضحية، ففي وقت الأزمات تظهر الخبرات.

ظلت معايشته لمرضى كورونا يومية، فهو لم يغادر إلى منزله منذ إعلان حالة الطوارئ، تجرّد في تلك الأيام من إحساس الطبيب المدرك لخطر المرض وإمكانية أن يتنقل إليه وهو وسط المصابين دون معينات وقاية كافية بالمستشفى، ما كان يعنيه ما يصيبه بقدر مساهمته في إنقاذ المرضى المتكدسين في العنابر والممرات وتحت الشجر في الفضاء الخارجي للمستشفى، أصبح هو ومساعدوه من صغار الأطباء والممرضين أسرهم وأهلهم، فلا أحد يزورهم هنا، ولا يوجد من يتجرأ بأن يكون وسطهم غير الدكتور(مصباح التوم) ومجموعته الطبية التي جمعتها دعوة من الجهات الرسمية الطبية للتطوع في مستشفيات (الكورونا) فلم يترددوا في تلبية النداء الإنساني.

بذل الدكتور (مصباح التوم) أقصى ما يمكن أن يبذله طبيب في هذه الجائحة وأنشأ مكاناً منفصلاً للمصابين من الأطفال وقدم لهم رعاية خاصة، جعلت منظمة الصحة العالمية تعتبره الأنموذج في رعاية الأطفال المصابين بهذا الفيروس اللعين، ذاع صيت الدكتور (مصباح التوم) دون برامج مدفوعة الأجر للفضائيات يعلن فيها عن خدماته في عيادته الخاصة، ودون أن تكون له عيادة خاصة في شارع الأطباء الشهير الذي يتاجر بعلاج المرضى. أبلغته لجنة الطوارئ الصحية أن المرض تفشى وسط دار الأطفال مجهولي الوالدين في جنوب المدينة فتوجه إلى هناك ومعه مجموعة من المساعدين المتطوعين، وجد أن المرض قضى على أكثر من عشرة أطفال غضون يومين، فبذل كل الممكن في إنقاذ البقية، وحجز لنفسه غرفة طرفية داخل الدار جعلها مقراً له يأخذ فيها قسطاً من الراحة ثم يُعاوِد عمله، وعمل على عزل الأطفال

المصابين في غرف خاصة، ومنذ حضوره لم يمت من المرضى سوى طفل واحد كان في حالة متأخرة عندما وصل هو ومجموعته الطبية المتطوعة.

كان وجود الدكتور(مصباح التوم) في دار الأطفال مجهولي الوالدين فرصة للرجوع عن رأيه بالعودة مرة أخرى للبلدة الخليجية، فقد وجد ما يبحث عنه بعد رحلة مهنية طويلة، هنا يستطيع تقديم العطاء الحقيقي لفئة لا تستطيع أن تذهب حتى إلى العيادة الطرفية التي أغلقها، ناهيك عن شارع الأطباء الشهير الذي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يستوعب مثل هؤلاء، شجّعه على ذلك العلاقة المميزة التي خلقها مع المتطوعين من الشباب والشابات في هذه الدار، الذين يعتقدون كما يعتقد الدكتور (مصباح التوم) أن الإنجاز الحقيقي في الحياة هو العطاء ورسم البسمة على وجوه الناس، حتى الأطفال نفسهم تعلّقوا به فقد كان لطيفاً معهم يمازحهم ويتودد لهم، ووجدوا فيه أباً بديلاً أفرغوا فيه مشاعرهم البريئة المكبوتة.

أحدثت فترة وجود الدكتور(مصباح التوم) داخل دار مجهولي الوالدين تحولات كبيرة في حياته، وشعر أن وجوده مهم في وطنه، وأصبح يفكر في تأسيس عيادة للأطفال داخل الدار، لكن قطع تخطيطه إحساسه بالمرض، شعر بأعراض (كورونا) التي ظلّ يحاربها الشهور الماضية، وتمكنت منه الحمى والتهاب الحلق والإرهاق، ووجد صعوبة كبيرة في التنفس، طلب من مساعديه عزله في الغرفة التي خصصها لنفسه داخل الدار، فعل الفريق الطبي المتطوع معه كل ما يمكن فعله لإنقاذه، لكنه رحل في ليلة حزينة أبكت المتطوعين من الشباب والشابات، مات وفي نفسه قصصٌ كان يريد للأجيال أن تخلّدها عن قيمة العطاء، لم يجد أحداً يشيعه فقد تكفلت السلطات بدفنه وسط إجراءات احترازات طبية، شيّعته فقط نظرات الأطفال البريئة وهي تودّع نعشه من بعيد خلف جدران الدار، كتبت عنه وسائل الإعلام المحلية؛ بأنه البطل الذي حارب مرض(الكورونا) في عدة جبهات، ونُشِرت سيرته الذاتية، واحتفت به الجهات التي رفضت تعيينه لكنها لم تكتب ذلك في سياق رحلته المهنية.

رحل الدكتور (مصباح التوم) بعد أن كتب رسالة بكل وجع الحزن الذي تركه وسط دار مجهولي الوالدين لزملائه الأطباء بشارع العيادات الشهير؛ تخبرهم أن مصابيحه التي جاء يحملها التهمها ظلام الواقع الذي ما كان يتخيله.

-8-

قواقع المـاضـي

تبدو المدينة الساحلية في شرق البلاد في زينة مختلفة، ففي الحي الشعبي في طرفها، جاءت الأنباء عن قدوم أحد أبنائها الذين غابوا عنها أعواماً كثيرة حتى كاد الجيل الحالي أن ينساه، فهو من الأوائل الذين هاجروا طلباً للعلم ملتحقاً بإحدى الجامعات الأوربية في مجال الهندسة الزراعية، ثم بعد ذلك مكث مدة طويلة في (أوربا).

ظل سكان الحي ينسجون حوله الشائعات والقصص، بعضهم يقول إنه تزوج بريطانية وله ولد، وبعضهم يعتقد أنه يعيش حياة السّفه والخمر والتشرد، عاش المهندس (أمين الحوري) طفولته وبعض شبابه في الحي الشعبي طرف المدينة الساحلية التي تضم أطيافاً من البشر، فقد جاءت قبيلة (الرشايدة) منذ قرن من الجزيرة العربية وشكّلت ثقافة ووجوداً على المدينة، احتفظت القبيلة بعاداتها وتراثها وشكل مساكنها التقليدية من الخيام والدواب والأسلحة البدائية حتى تشعر أن (عنترة بن شداد) يسكن معهم، تمازجوا مع مجتمع المدينة الساحلية لكن من غير مصاهرة وتزاوج فاحتفظوا بسحناتهم العربية، ووفدت إلى المدينة الساحلية هجرات من شمال البلاد وجنوبها ووسطها وغربها، وأخرى من غرب أفريقيا والمغرب العربي ومصر والهند، وتكاد تشعر وأنت تتجول في المدينة الساحلية أن هؤلاء البشر جاء بهم (اللوتري الأمريكي) من شدة تنوعهم، كل جنس من هذه الأجناس يستوطِنُ مكاناً لوحده؛ عندما تراهم في الأسواق وأماكن التجمعات تظُنّ أنك في (أوركسترا) موسيقية حققت لحناً واحداً من آلات متنوعة.

جاءت أسرة (أمين الحوري) من شمال البلاد منذ الأجداد، وسكنت هذا الحي الشعبي وسرعان ما ذابت في المجتمع (البجاوي) أصل المنطقة، والبجة أهل فراسة وشجاعة وصراحة ووفاء وسخرية، لهم اعتزاز كبير بالنفس وذكاء مختبِئ خلف ملابسهم الشعبية التي تتكون من (السروال) و(العراقي) و(الصديري) والسيف الذي يعتبر مكملاً للزي الشعبي، وصل (أمين الحوري) إلى الحي الشعبي بعد فترة اغتراب ولم يحضر معه غير (أمين) جديد يحمل شهادة في الهندسة الزراعية ويرتدي القبعة الأوربية، ويشعل غليونه كل ربع ساعة، حضر وقد تخطى عمر الخمسين بعام، ومن الصعب أن تستوعبه الخدمة المدنية، فهو نفسه يرى أن إمكانياته أكبر

من أن تستوعبها هذه البلاد، وبالطبع في بعض الأحيان نجد أناساً يتخيّلونَ صورة ذهنية غير حقيقية عن أنفسهم، وكان أمين واحداً من هؤلاء. توافد على منزله الأهل والأحباب والجيران ورفقاء الطفولة والشباب، فوجدوا لغة غربية منتقدة لهم ولأعمالهم ومهنهم البسيطة التي كانت أغلبها تفريغ بضائع الشحن من السفن والصيد والتجارة المتواضعة، انتقد مساكنهم الخشبية المتهالكة، وجلوسهم في الطرقات متجمعين أمام بائعات الشاي، وزياراتهم لبعضهم دون توقيت أو استئذان، صوّر لهم مستقبلاً حزيناً لحياتهم، وسخر من تفكيرهم وبساطتهم، عرف أهالي الحي الشعبي أن زياراتهم مزعجة له فانقطعوا عنه، أصبح صاحب المتجر الصغير البجاوي (النور أبو آمنة) الوحيد الذي يزوره، فقد كان صديقه القديم يجلس بجواره في المدرسة، ومعهم صديق ثالث أصبح مُغنياً شهيراً يؤدي الأغنيات (البجاوية)، لم يواصل (النور أبو آمنة) دراسته فعمل لسنوات بحّاراً في السفن، وجاب أقطاراً عديدة من العالم، وبعد ذلك عادَ إلى الحي الشعبي وأنشأ هذه التجارة البسيطة من عائد عمله، واحتفظ بزيه الشعبي وسيفه المعلّق وسط جسده شأنه شأن أي (بجاوي) لم يغادر الحي الشعبي ويختلط بمجتمعات عديدة، ما كان يعطيك أي إحساس أنه زار معظم أوربا وأمريكيا ودول آسيا، فقد ظلّ ذلك (البجاوي) المغبر المتدثّر بروح وعبق الحي الشعبي. صار (النور أبو آمنة) أيقونة الحي الشعبي فقد استطاع أن يساهم في ربط بعض أبنائه الفقراء بالمصارف ونالوا أموالاً من التمويل الأصغر مثل شراء شبكات الصيد والمراكب الصغيرة، وكان مستشاراً غير رسمي لهم، استطاع في وقت وجيز أن يُكوّن لنفسه مكانة اجتماعية كبيرة، ليس بمال يقدمه، وإنّما بأفكار وخُططٍ ساعدتْ الكثير من أبناء الحي الشعبي.

كان (النور أبو آمنة) ينظر إلى صديقه القديم (أمين الحوري) بكثير من الإشفاق، ويظن أن الرجل أصابته أمراض الاغتراب الثقافي وهي كثيرة، منها الأعراض التي تنتاب صديقه مثل رفض الواقع وعدم التعامل معه، والنظر إلى الناس كأنها كائنات من الصعب أن تتطور، والاعتقاد بصعوبة أن تجد أحداً يفهم في المجتمع الذي تعيش فيه، بينما كان (أمين الحوري) ينظر إلى صديقه أنه رجل كان من الممكن أن يستفيد من سفرياته ومخالطته لمجتمعات متنوعة، لكن أصابته لعنة الحي الشعبي، وعاد ليمارس معهم نفس العادات المتخلّفة، كان في داخله يتحسّر على (النور أبو آمنة) ويعتقد أنه أضاع فرصة العمر حيث لم ينزل من أحد السفن في أي مدينة أوربية ويطلب اللجوء، فقد كان يعتقد أن شرح المعاناة في هذا الحي كفيلة بإقناع أي سلطات في أي دولة أوربية بمنح اللجوء، فهي معاناة تعفي بعض طالبي اللجوء من سرد الأحداث المزيفة والمضحكة في بعض الأحيان من أجل الاستجابة لطلباتهم.

ذات مساءٍ شتويٍ ماطرٍ زار الحي الشعبي صديقهما الثالث، المغني الشهير(عيسى دورديب)، كان زميلهم في المدرسة يقطن السكن الداخلي، فقد جاء من قريته (دورديب) القريبة من المدينة الساحلية فالتصق اسم القرية به، رافقته موهبة الغناء والصوت الجميل منذ سنوات الدراسة، لم تتغير ملامحه كثيراً، وما زال يحتفظ بروحه المرحة ومقدرته الكبيرة على صنع النكتة، والتعبير بسخرية عن كل موقف، زار المغنّي الشهير صديقه (أمين الحوري) فقد كان يلتقي به عندما يذهب إلى (أوربا) في بعثات فنية تعكس تراث المنطقة، وفي إحدى المرات زاره في منزله الأنيق بالحي الريفي طرف لندن، سأله عن زوجته البريطانية وابنه، فهو الوحيد في الحي الشعبي الذي يعرف هذه التفاصيل الخاصة، في هذه اللحظة خرجت المأساة التي كان يخفيها (أمين الحوري)، وأنزل قبعته من على رأسه وأطفأ غليونه، وانهَمرَت دموع كثيرة من دون بكاء، سادت لحظات من الصمت الحزين ثم قال له إن ابني توفي قبل عامين في حادث سير، حيث سقطت سيارته من إحدى جسور لندن على النهر في منتصف الليل، ونهض مسرعاً وعاد برواية صغيرة عنوانها(العودة)؛ قال إن ابنه كتبها ضمن مطلوبات مشروع تخرج بعد دراسته الأدب العربي في إحدى الجامعات الإنجليزية، تحكي الرواية عن شاب عاش معظم سنواته خارج بلاده، ولم يعرف عن موطن والده الأفريقي إلا قصصاً وروايات وصوراً ذهنية اختزنها، أحب فيها حكايات الكرم والتآلف والتعايش والتسامح، تقول الرواية إن الشاب عاد إلى موطنه الثاني في أفريقيا، وانصهر في المجتمع المحلي، حمل معه دماء وجينات أمه البريطانية، فساهم مع الأهالي المحليين في بناء مشاريع للتنمية ووظف سمات وخصائص المجتمع المحلي مع قيم الإدارة والانضباط، فأصبح نجماً في الحي الفقير، قال (أمين الحوري) لضيفه كأنما كان ولدي يحكي عن أحلامه وآماله في هذه الحياة، وذهَب يسرد بأسىً كأنه وجد متنفساً كان ينتظره، وقال انفصلت العام الماضي عن زوجتي فهي تعتبر أن سبب بقائنا معاً قد انتهى بعد موت ابنها، وهي أساساً كانت تخطط بعد تخرج ابنها من الجامعة أن تنفصل عني حيث تختلف هواياتنا وأمزجتنا، فهي تحب السفر والسياحة، وأنا أحب المكوث في المنزل والقراءة وصيد السمك، قال لضيفه (عيسى دورديب) جِئت هنا محاولاً تحقيق حلم ابني الذي كتبه في رواية (العودة)، لكنّي وجدت ابني يرسم وهماً كبيراً في سراب الأماني، فلا المجتمع الذي ينشده قابلٌ للتطور، ولا أوربي يستطيع أن يعيش هنا، وجدت قوماً يهتمّون بزيارة بعضهم أكثر مما ينجزون عملاً مهماً، يجاملون فوق طاقتهم ولا يبالون بإنفاق الوقت دون جدوى، يسافرون من مدينة إلى مدينة ويتركون أعمالهم من أجل واجب عزاء، ويتلاومون في صغائر، يتحلّقون جماعاتٍ في سور المستشفيات لزيارات المرضى، ويُمضون أياماً في مناسبات الزواج، ويُعاوِنون العاطل على

مزيد من التعطّل ويسمونه تكافلاً، يلقون كل حملهم على كبير الأسرة، فلا هو يتطور، ولا هم ينفذون للمستقبل، ولا يصبرون على اكتمال المشاريع، ظلّ (أمين الحوري) هكذا، انتقاداته أكثر من رؤى إصلاحه، وإحباطه أكثر من تفاؤله، لكنه رغم ذلك لا يفكر في العودة إلى أوربا! بعد أن فقد حياته الخاصة ولا توجد هناك حياة عامة، ولا يُمكَنه هذا الإحساس من البقاء هنا، حيث توجد من وجهة نظره حياة عامة فقط، ولا مجال للخصوصيات!

اعتزل (أمين الحوري) المجتمع الذي حوله، وأقام لنفسه سياجاً من الحذر، وظلّ داخل منزله لسنوات لا يخرج إلا للمستشفى لتلقي العلاج أو حضور صلاة الجمعة، حتى في المسجد اتخذ مكاناً واحداً يجلس فيه دائماً ولا يغيّره، يأتي بكامل هندامه وأناقته في جلبابٍ ناصع البياض وعطرٍ فواح، كان أهالي الحي يتجنبون الصلاة بجواره، فهو يفضح ثيابهم المتواضعة، ويحاولون قدر الإمكان عدم الحديث معه، فهو دون شك سيختم الحديث بانتقادهم، حتى خطيب الجمعة يسترق النظر أثناء الخطبة لأمين الحوري ليرى انطباعاته عن خطبته في تقاطيع وجهه، لأنه في أحد المرّات قال له إن خطبته بعيدة عن الواقع، فلا بد أن تنصح الناس بترك الجلوس في النوادي والمقاهي وأمام المنازل، ويجب أن تُركّز في خطبتك على أضرار الزيارات العائلية المتكررة والمزعجة التي ليس لها مواعيد ولا ضابط ولا توقيت، وأن تدعوا الناس إلى العمل، ظلّ يعتقد أن خطيب الجمعة يحرّض المجتمع على مزيد من التعطل وترك التنمية.

كان الوحيد المتعاطف معه صديقه المغني الشهير(عيسى دورديب)، كل ما أتى الحي الشعبي مغنياً في مناسبة زواج زاره في منزله، ما أثار فضول أبناء الحي واستغرابهم، فهم يرون في ذلك صداقة غير متكافئة، فالأول فنان عبر إلى القلوب بفنه الراقي، يجلس مع الكبير والصغير، والغني والفقير في تواضع وود وأريحية، ما كان يعبأ بالشهرة والمال الذي جناه من عمله، وبعلاقاته مع كبار مسؤولي الدولة والمشاهير ورجال الأعمال، وظهوره في القنوات الفضائية ومواقع التواصل الاجتماعي، يستمتع بأخذ الصور التذكارية مع أبناء الحي الشعبي التي يزينون بها هواتفهم ومشاركاتهم في الميديا؛ أما الثاني فقد كان رجلاً بالنسبة لهم عبئاً كبيراً، سمعوا عن الترفّع فوجدوه فيه لغة وأسلوباً وسلوكاً، بعضهم يعتبره متكبراً وآخرون يرونه مجنوناً، فهو لا يتردد في إحراج أحد، ولا يخفي مشاعره السلبية تجاه الناس، لذلك هم يستغربون هذه العلاقة المتناقضة التي تجعل من الصعب أن يكون بينهما مزاج واحد. إنه الشعور ذاته بعلاقته مع (النور أبو آمنة)، كانوا يشكونه إليه، فيقول لهم إن الرجل حتماً سيعود لنا يوماً ما.

كان المغني الشهير(عيسى دورديب) يحرص كلّما خرج من زيارة صديقه (أمين الحوري) أن يمضي دقائق مع (النور أبو آمنة) في متجره الصغير في وسط الحي، وهنالك سرّ آخر يجذبه

لهذا المكان، إنه وجود المرأة الأربعينية البيضاء الهادئة ذات الابتسامة الدائمة(علوية بنت الريف)، ظلّت تحتفظ بهذا المكان تطهي في الشارع وتبيع (البطاطا الحلوة) بعضها مشوي على الجمر، والآخر مسلوق، لا يعرف أحد امتداداً لأسرتها فالروايات في الحي تقول إنها جاءت مع زوجها الملّاح من صعيد مصر، وخرج في رحلة بحرية ولم يعد، وظلّت تمارس الانتظار وبعد سنوات انفصلت عنه غيابياً، أطلق عليها سكان الحي لقب (بنت الريف) فهم يسمون أي مصري جاء من الصعيد بولد الريف وأي مرأة ببنت الريف، أحلّت (علوية) ثقافة التلذذ بالبطاطا الحلوة في هذا الحي وشاعت تجارتها الصغيرة حتى أصبح يأتيها زبائن من كافة أرجاء المدينة، وكان (النور أبو آمنة) قد ساعدها في إيجاد تمويل أصغر لشراء معدات بسيطة لتجارتها من المصرف. ظلّ (أمين الحوري) يضجر كلما مرّ على محلها الشعبي غير الرسمي الذي تعرفه جيداً سلطات البلدية ولا تأبه به، فالضابط الإداري نفسه زبون دائم لبنت الريف، يأتي عند المغيب ويأكل قطعة من البطاطا الحلوة المشوية على الجمر عندها، ويأخذ الباقي المسلوق إلى منزله، كان منظر الضابط الإداري بزيه الرسمي البني اللون، وعلى كتفيه الشرائط مع القبعة الرسمية، يثير غضب (أمين الحوري)، فبدلاً من مطاردتها ومنعها من بيع هذا الطعام الملوّث حسب اعتقاده، يتساهَلُ هذا الضابط في عمله ويشجعها على ذلك!! كان يقول لنفسه كيف لامرأة جميلة بيضاء هادئة ساحرة الابتسامة أن تتوسط هذا الشارع البائِس؟ أرادَ معرفةَ معلوماتٍ أكثر عنها، لكن قنوات الأخبار مقطوعة عنه، فلا أحد يتحدّث معه هنا غير النور أبو آمنة المشغول دوماً في متجره ونادراً ما يجِده وحده.

كانت من عادات (أمين الحوري) أن يتهيأ للمغيب بإنارة كل مصابيح منزله القوية التي أحضرها معه من أوربا، عندما تشاهد المنزل من بعيد يظهر كأنه سفينة كبيرة في ساحل البحر وسط الظلام، لم تستطع مصابيح الحي الشعبي أن تجاري قوة أضواء منزله، وكانت تلك الحسنة الوحيدة التي يعتقد أهالي الحي الشعبي أن (أمين الحوري) يوفرها لهم، ذات مساء كان منزله كباقي مساكن الأهالي، فالمصابيح على غير العادة لم ترسل الأنوار، كان الأمر مقلقاً لبنت الريف وزبائنها الذين يستفيدون من الضوء الساقط على الشارع حيث يجلسون، ونقلت قلقها إلى (النور أبو آمنة) الذي لم يتردد في طرق الباب، فلم يجد أي استجابة، انتظر طويلاً وتجمع معه زبائن بنت الريف وقرروا اقتحام الباب الخارجي وتمكنوا من ذلك بسهولة، وكانت المفاجأة أنهم وجدوا (أمين الحوري) مُلقى على الأرض وبجانبه رواية (العودة) التي يبدو أنه كان يتصفّحها أثناء سقوطه، صرخت بت الريف بصوت كان كافياً أن يحضر معظم الجيران، امتلأ فناء الدار وحملوه على سيارة الضابط الإداري الذي صادَف وجوده هذه الحادثة وذهبوا

به إلى المستشفى، وكان مغمياً عليه كلياَ وفاقداً للوعي، واعتقد بعض المرافقين أنه ربما مات، سريعاً تم إدخاله إلى غرفة الإنعاش وبعد ساعات أعلن الطبيب إصابته بذبحة قلبية لكنّه بخير والأمل كبير في الشفاء، مكث (أمين الحوري) أسابيع في المستشفى كشفت له وجهاً آخراً للحي الشعبي، فقد كانت بنت الريف هي المشرفة على عمليات غذائه وظلّت تجتهد في أن توازن بين عملها ووجودها في المستشفى، وعلِم بعد ذلك أن أبناء الحي الشعبي تشاركوا جميعاً في جمع المال لسدّ تكاليف العلاج رغم دخلهم المحدود، وأخبره صديقه (النور أبو آمنة) أن إمام المسجد ظلّ عقِب كل صلاة جمعة يدعو له بالشفاء، وقد حضر أمس ومعه بعض المصلّين لزيارته، لكن حارس البوابة منعهم من الدخول لوصولهم عقب الوقت المحدد للزيارة من قبل إدارة المستشفى، وتركوا ورقة فيها أسمائهم وبعض المال، ويوم خروجه من المستشفى تكفّلت بنت الريف ومعها بعض الجارات بنظافة المنزل، دخلْنه دون استِئذان أو برتوكولات، وطبّقن قوانين وعادات وأعراف الحي الشعبي، وأحضر المغني الشهير (دورديب) خروفاً كبيراً وتمّ ذبحه بهذه المناسبة، وأقام الحي وليمة كبيرة حضرها الجميع دون بطاقات دعوة، حتى ذلك الممرض المرابط في غرفة الإنعاش حضَر إلى هذه الوليمة، فقد تعرّف على معظم أبناء الحي الشعبي من خلال زياراتهم المتكررة، وأصبح بعد ذلك زبوناً عند بنت الريف.

اهتزّت مشاعر وأحاسيس (أمين الحوري) لهذه اللوحة الاجتماعية الراقية، سقطت دموع الندم والأسى من مُقله، شعر بأنه كان يعيش في وهم كبير اسمه البرتوكولات والحذر من الناس، علّمته هذه الوعكة وموقف سكان الحي الشعبي من حوله؛ أنهم يعيشون الحياة الحقيقية الخالية من دسم المظاهر الزائفة، فهم يعرضون مشاعرهم على الهواء وفي الشارع، ولا يغلفونها بالتّخفي والهروب والمواعيد، ولا يجعلون لحبّهم حدوداً، ولا لودّهم نهايات، علِم سرّ صديقه الملاح (النور أبو آمنة)، الذي عادَ تاركاً بهرجة الموانئ مفضّلاً مرافِئ الحي الشعبي الجميل، كان أول ما فعله عقب انتهاء الوليمة حرق بدلته الأنيقة وغليونه وقبعته اللندنية، لبس (السروال) و(العراقي) المحلي، واتخذ لنفسه مجلساً أمام متجر صديقه (النور أبو آمنة)، وأصبح زبوناً دائماً لبنت الريف يتلذذ بقطع البطاطا الحلوة التي كان يعتقد أنها ملوّثة، استمع لخُطب إمام المسجد بتفسير وإدراك مختلف، ظلّ يعاتب نفسه على عدم إدراكه لهذه السعادة منذ قدومه للحي الشعبي، صارت داره مليئة بالأصدقاء والجيران، وأنشأَ مع صديقه (النور أبو آمنة) مزرعة صغيرة في طرف الحي الشعبي لزراعة البطاطا الحلوة وتصديرها عبر الميناء، وتحوّلت بنت الريف من بائعة إلى مشاركة في تعبئة وتغليف البطاطا الحلوة الطازجة في المزرعة الجديدة.

وفي مساء جميلٍ على الحي كانت دار (أمين الحوري) مشعة بالأضواء مع مصابيحها الشهيرة، وتتدلى من بوابتها الكبيرة زينة تعلنُ عن حدثٍ سعيدٍ، حيث تجمّع أهالي الحي الشعبي على أنغام المغني الشهير ليشهدوا زواج (أمين الحوري) من علوية بنت الريف، غنّى (عيسى دورديب) كما لم يغن من قبل، وتمايل الحضور طرباً من الأعماق، وعقِب الاحتفال أهدى (أمين الحوري) نسخاً من (رواية العودة) التي كتبها ابنه لشباب الحي، وقال لهم إن الوطن إحساس نحمله في دواخلنا وإن هاجرنا منه، يظلّ يسكننا ولا نسكن نحن فيه، قال لهم أنتم الوطن، فبمشاعركم ترسِمون تضاريس العشق الباقي.

-9-

لالـوقـا

استغرب صديقي من اللافتة المكتوب عليها نادي المعلّمين والمعلّمات، يبدو أنه النادي الوحيد الذي اتسم بهذه الميزة في البلدة النهرية في شمال البلاد، فقد جاء الصديق غريباً عليها ولأول مرة يزورها، سأل سؤالاً صعباً بالنسبة لي، هل تأتي المعلمات لهذا النادي؟ والحقيقة ظلّلت أمرّ يومياً أمام هذه اللافتة ولم ألحظ مضامينها، والحقيقة الثانية أن المعلّمات لا يأتين النادي فلم أشاهدهنّ هنا من قبل، وهذه من المفارقات الغريبة التي لم أجد لها إجابة، تجوّلت مع الصديق الزائر، وكأني أرى المدينة لأول مرة، فهو ينظر بعيونٍ وزوايا مختلفة، زرنا أول مسجد تم تأسيسه بالمدينة، تبدو على بنائِه العتاقة والثقافة العثمانية في المِعمار والنقوش، وله منبر خشبي كبير كثير الزخارف، تحفّه حديقة غنّاء وسور من كل الجوانب، له مئذنة سامقة في غاية الجمال، بجانب المسجد مباشرة توجد أيضاً أقدم كنيسة في المدينة للأقباط المسيحيين الذين يمثّلون نسيجاً اجتماعياً قديماً وصاروا رائحةً من طين المدينة وترابها، ومن المفارقات التي أثارت انتباه الصديق الزائر اختلاط صوت الآذان مع أجراس الكنيسة، وتوافد المصلّين مع بعضهم من الحي المجاور، بعضهم يدخل الجامع والآخر إلى الكنيسة، ثم بعد انتهاء صلواتهم يتسامرون في السوق الصغير المجاور لهذه الأمكنة المعطّرة بأريج التسامح والتعايش. أَصرّ صديقي أن نتّخِذ مجلساً وسط المقهى في السوق الصغير، ورحّب بنا الرواد ترحيباً حاراً، ويبدو أن أغلبهم من المعاشيين، تعرفت على أحدهم، فهو (فرنسيس عازر) القبطي المسيحي الجميل صاحب النكتة والضحكة والسخرية، كان رجلاً قصير القامة، لونه أبيض مائِل إلى الحمرة، بدين الجسد، نتذكّره ونحن صغار بسيارته (الهنتر) التي تقف أمام بوابة السينما، فقد كان المسؤول عنها، يُشرف على موظفي التذاكر وفي بعض الأحيان يقوم بتنظيم الصفوف، كان يمنع الصغار من مشاهدة الأفلام المخصصة للكبار، ويُطبق هذا القانون بحزم، كان يقوم بذلك قبل قوانين حقوق الطفل، عندما تأمّلت الرجل الجنوبي (الأبنوسي) الذي يجلس بجوار (فرنسيس عازر) تذكرت الملامح القديمة الباقية في الذاكرة، إنه (بلبل منجواك) الجنائني الشهير أيام كنا أطفالاً، كانت مهمته الاهتمام بحديقة المسجد والكنيسة ومدرستنا المجاورة لهذه المباني، كنا نهابه جداً لأن له علاقة خاصة بمدير المدرسة وينقل له تصرفاتنا الصبيانية خارجها، ويكون العقاب في اليوم التالي، ولا يجرؤ تلميذ عائد من المدرسة أن يسبح في النهر دون علم أسرته، فهو يرصد

ذلك ويقدم الأسماء غنيمة لمدير المدرسة، ويكون العقاب جلداً جسدياً مبرحاً في طابور الصباح، ورغم ذلك فهو لطيف جداً يتحدث ب(عربي جوبا) وهي لهجة تجعل الفرد ينطق الكلمات العربية بطريقة اللغات المحلية الأفريقية في جنوب البلاد، كما أنه يُتقن اللغة النوبية التي تعلّمها في شمال البلاد، رغم أنه لم يرتَد المدارس بصورة منظمة إلا أن له لغة إنجليزية تجعله دوماً يسخر من لغتنا التي تعلّمناها في المدارس، وكان يُصحح لنا بعض أخطاء النطق.

في ركنٍ من المقهى يجلس رجل في منتصف الستينيات من عمره، يبدو أنه كان وسيماً في شبابه، فما زالت تقاطيع وجهه تومِئ بذلك، ولباسه الأنيق يوحي بأنه كان من الذين يهتمون بهندامهم، فهو يرتدي قميصاً أبيضاً نصف كمّ ورباط عنق حمراء وبنطلوناً أسود، جالسٌ لا يتحدث مع أحد، وكأنه يفكر في ماضٍ قديم، سألت عنه، فتبرع (فرنسيس عازر) بقصته، قال إن (كمال حافظ) معلّم قديم للغة الإنجليزية كانٍ في شبابه رئيساً لنقابة المعلمين في البلدة النهرية، اشتهر بالخطاب القوي والكتابات العميقة، والمقالات الرصينة التي تُنشر في الصحف، لكنه هاجر باكراً خارج البلاد، وعاد هكذا لا يتحدث مع أحد إلا الذين يعرفهم قبل هجرته، أصابه مرض جعله فقط يتذكر الأحداث القديمة، لا يتعرف على الأشخاص غير الذين عملوا معه سابقاً، حتى فترة عمله خارج البلاد لا يتذكرها، صار يتجول في المدارس التي عمِل فيها، ويسأل عن حصصه وطلابه القدامى، وفي نهاية اليوم يذهب إلى دار نقابة المعلمين ويُحاول ممارسة أعماله، إنه يعيش في تاريخه بكل شخوصه وأحداثه، ويرفض التعامل مع الواقع، يحرص على الحضور هنا لأنه صديقٌ قديم للنادل الأريتيري العجوز الذي يعمل بالمقهى، ظل (أكاسا أولياي) طعمَ المقهى الحلو منذ سنوات طويلة، عمِل فيه منذ أن أتى شاباً إبان الحروب الإرترية مع أثيوبيا، ولم يعد بعد انتهاء الحرب وانفصال دولة أرتيريا وتأسيس دولتها، كرِه (أكاسا) مصطلح الانفصال، ويتحدث دوماً عن استقلال أريتريا، ظل الأريتيري القصير الرشيق معلماً بالبلدة، له حركات درامية في تقديم الطلبات تُضحك الزبائن، ويَعرف أمزجتهم وطقوسهم، يتحدث العربية باللكنة (الأمهرية)، فتخرج الكلمات من لسانه بأسلوب خاص به، ظل أبناء المدارس المراهقين يقلدون طريقة نطقه التي كانت غريبة عليهم.

غادرنا المقهى وقال صديقي الضيف إن هذا من مفارقات المدينة النهرية العجيبة، أنها تجعلك تعيش الماضي والحاضر، تسرح مع (كمال حافظ) بخياله العكسي ومسرحه التاريخي الذي عاد إليه من غير رجعة، والمدينة تستوعب هذه الرجعة فيتعامل معه مدير المدرسة على أنه أحد أفرادها ويفتح له مكتبه القديم ويقضي فيه ساعاته ثم يمضي إلى دار النقابة فتُفتح له الأبواب، ويعيش كما يريد.

وصلنا إلى سوق المدينة الكبير، فالسوق هنا ليس للتجارة والبيع والشراء فقط، ولكنه مكان أنس ومتعة ولقاء، استوقفني صديقي أمام تجمع في مقهى بلدي فقير، يشاهد الرواد فيه عرضاً تلقائياً من الغناء

بطريقة درامية مضحكة من ظريف البلدة (رجب خميس)، ولا أظن أن أحداً يجهله في المدينة النهرية، فهو موجود في مناسبات الأفراح والأحزان، لكن أكثر تواجده في دار الرياضة، يدخلها دون تذاكر أو تصريح دخول، مهمته التجوال في المساطب وإشاعة الفرح والغناء الدرامي وسط الحضور، أظن أن الكثيرين يأتون إلى هنا فقط لمشاهدة (خميس رجب) وهو يقلد المغني القديم بطريقة كوميدية، يحفظ من الأغنيات لحنها فقط، ويتمتمها بأصوات يقلد فيها الموسيقى، ويتجاوب معه المشجعون ويتركون مشاهدة كرة القدم ويتابعونه ويُردّدون خلفه، في بعض الأحيان تشاهده في كامل الهندام بالزي الشعبي والعصا، وفي مرات أخرى يلبس أزياء قديمة ممزقة، فهو في كل يوم يبحث عن الملابس من معجبيه في البلدة النهرية ليرتديها، وفي آخر اليوم يتصدق بها على المشردين وفاقدي المأوى الذين يعرفونه جيداً ويقصدونه عند اشتداد البلاء بهم، ثم يبحث عن معجب آخر يرتدي ملابسه، أعتقد أن نصف أهل المدينة أهدوه ملابس من قبل.

لا أحد يعرف أسرة أو أقارب ل (رجب خميس) فكل المدينة النهرية أسرته، يتجوّل في مقاهي السوق الكبير صباحاً، ثم يذهب إلى دار الرياضة مساءً، وبعد ذلك يختار المكان الذي يبيت فيه، مرة يقضي ليلته في أحد عنابر المرضى بالمستشفى، ومرة في بنك الدم، ومرة مع أفراد المطافئ، ثم تجده في مرات مع جنود مركز الشرطة، هو صديق لكل أصحاب المهن الذين يعملون في أوقات ليلية، بالطبع هم يستمتعون بمبيته معهم، فبوجوده تنقلب ليلة العمل إلى سمر وضحك وسخرية وغناء درامي.

سألني صديقي عن الرجل الضخم الذي يرتدي نظارة سوداء وبدلة كاملة ويُعامله زبائن المقهى باحترام وتقدير، ويضحك بصوت عالٍ ثم يخلع النظارة ليمسح الدموع التي تنزل منه من شدة الضحك من الحركات الدرامية التي يؤديها (خميس رجب)، قلت له إنه رئيس القضاة بالمدينة، سرح الصديق بعيداً وقال باستغراب، إنها مفارقات وإبداعات هذه المدينة النهرية!! لا أظن أن مقهىً في العالم يمكن أن يضم في جلسة واحدة بائع الخضار والموظف والعامل والقاضي وأمثال خميس رجب، ثم يؤدون في موقف واحد هذا العرض من الانسجام والانصهار والضحك.

سافر صديقي وهو يحمل عشق المدينة في قلبه، يُراسلني كل صباح عبر مواقع التواصل ويسأل عن(كمال حافظ) و(فرانسيس عازر) و(بلبل منجواك) و(أكاسا أولياي) و(رجب خميس)، لكن بعده تَبدّلَ الحال، وظهرت في أطراف البلدة بوادر التنقيب العشوائي عن الذهب، وهجرها الناس وذهبوا إلى الصحراء التي حولها يُمنّون أنفسهم بالمال والثروات، لم تستطع السلطات السيطرة على رغبات الناس وطموحاتهم، فترك الكثير من الطلبة جامعاتهم، واستقال بعض الموظفين من وظائفهم وراحوا يبحثون عن المجهول، بعضهم حصد الكنوز، فتغير حالهم إلى ثراء عشوائي، والبعض الآخر حصد الأوهام

والأمنيات الزائفة، سمقت مباني شاهقة أنيقة وسط بيوت بائسة في البلدة النهرية، ظهرت لأول مرة السيارات الفارهة في الشوارع القديمة، أصبح بعض الناس أكثر ثراءً من مؤسسات الدولة الحكومية، وصنعوا لأنفسهم حياتين، حياة بائسة داخل بلدتهم النهرية التي تحفظ في باطن أرضها بالمال والثروة والذهب، وأخرى خارج البلاد حيث اشتروا المنازل الفخمة، ويعيشون هناك تفاصيل الدّعَة والراحة وهناء العيش، جاء إلى المدينة النهرية وافدون جدد من داخل البلاد وخارجها يبحثون عن الذهب، وتسوّرت بحشود من الناس يحملون الأماني والرغبة في الثراء السريع، كانت توقعاتهم أنهم فور وصولهم سيجدون آبار الذهب جاهزة للتنقيب البدائي التقليدي، لكن مجموعات كانت قد سيطرت على المنابع والأراضي والآبار، وبدأت عمليات الاحتكاك والصراع، وظهرت العصابات المسلحة التي تسرق الذهب من المنقّبين التقليديين، وفشلت سلطات البلدة في السيطرة على ذلك، وأصبحت بوادي البلدة التي كانت خضراء؛ سوقاً للسلاح والمخدرات ومكاناً غير آمن للعيش والسكن والطمأنينة، كان من الممكن أن تكون للسلطة والقانون الكلمة، ليعيش الجميع في سلام، لكن بعض محدودي النظر في السلطة انخرطوا بأنفسهم في التعدين العشوائي، قدموا مصالحهم الخاصة على مصلحة الشعب.

من أجل الحصول على الذهب زادت الصراعات بين المنقّبين، وأصبح يستخرج بقوة السلاح، وصارت كل مجموعة تحمي نفسها بأنواع متقدمة من الأسلحة، بل طمِعت كل مجموعة في الذهب الذي تستخرجه المجموعة الأخرى، وبدأت حربٌ داخل مناطق التعدين الأهلي التقليدي، ثم انتقلت إلى المدينة النهرية، وذات صباح صحت البلدة على صوت مطاردات بالأسلحة الخفيفة والثقيلة على شوارعها، كل مجموعة تُطارد الأخرى، تركوا الذهب والتنقيب وتفرغوا للحرب، أفرغوا المدارس من الطلبة، وشرّدوا المُزارعين من حقولهم، وهرب المرضى من المستشفيات، أحرقوا معظم دور الجامعات والتعليم، وكأن لهم ثأراً معها، أغلقت المتاجر أبوابها، وتم نهب المصارف، وتعطلت الخدمات، خلت شوارع البلدة من المارة، وخيّم عليها البؤس والحزن، وتناثرت المآسي في الأسواق والمقاهي والشواطئ النهرية، قامت مجموعة من المنقّبين المسلحين باختطاف (أكاسا أولياي) بتهمة تهريب الذهب لصالح المجموعات الأخرى، اعتقلوه من أمام المقهى ظناً منهم أنه يراقبهم، وما علموا أن (أكاسا) لا هم له في هذه الدنيا غير إرضاء زبائن المقهى ونثر الفرح عبر أسلوبه المضحك في تقديم الطلبات، لا يعرف المال ولا الذهب، سعادته تكمن في رشفة قهوة وابتسامة زبون والترحيب بضيف جديد، عندما تسوء الأحوال تتمدد سوح الظنون لتجتاح الأبرياء مثل (أكاسا أولياي) الأريتيري الضحوك، فجأة تحول باسم التهمة والظن السيئ من نادل في مقهى إلى مهرّب للذهب، بات مصيره مجهولاً وانقطعت أخباره.

أما(فرنسيس عازر) فقد لجأ إلى الكنيسة واختفى فيها، مختبئاً مع مجموعات من الأقباط دون ماء وطعام إلا القليل منذ اندلاع الحرب العبثية، دَخَلتْ عليهم إحدى المجموعات المسلحة لنهبهم وقتلت كل من

قاوم، سالت الدماء لأول مرة في ساحة الكنيسة، وارتسم الحزن على الأجراس والجدران، كانوا جهالاً يظنون أن الكنيسة مليئة بالذهب والكنوز، مات (فرنسيس عازر) بطريقة لا تتسق مع ماضي هذه المدينة البريئة، فقِيّم الأقباط لا تقوم على العداوات مع غيرهم، بل قدموا نموذجاً رائعاً في السلام والتعايش والصدق في معاملاتهم و تجارتهم حتى أصبحوا مصدر ثقة الجميع، لن تستطع الكنيسة رنّ الأجراس لإعلان الموت، فبرك الدماء تمنع قارع الجرس من الوصول.

وَجدَتْ مجموعة من المنقّبين المسلحين الباحثين عن الثروة (خميس رجب) وهو يحتمى بالسور الخارجي لمركز الشرطة في المساء، فاعتبروه (رجل مخابرات) يعمل لصالح السلطات الحكومية ويتصنّع الحركات الدرامية لإخفاء شخصيته، زجّوا به في سيارة مكشوفة وأوسعوه ضرباً دون أن يسألوه أي سؤال، ورموه في مكان خلوي خارج المدينة النهرية، مات (خميس رجب) من شدة العطش، زهقت روحه وهو لا يعرف الذنب الذي جناه؟، ولا يعرف لماذا ضربوه وقتلوه؟ هؤلاء بالطبع لم يشاهدوه وهو على مساطب دار الرياضة يؤدي الأغنيات بطريقة درامية تُضحك الجمهور، ولم يُهدوا له ملابس من هندامهم القديم، حوّلوه فجأة من إنسان تتمدد فضاءات حبه في كل المدينة بساطة حتى تظن أنه درويش، إلى (رجل مخابرات)، وهو في حياته لا يستوعب هذه المعاني، كان يظن أن الكل سعيد بدليل أنهم يبادلونه الضحك والابتسام، ويُهدون له جميل الهندام.

اختفى قاضي المدينة وترك داره الجميلة، وهجم المسلحون على منزله ظناً منهم أن المنزل مليء بخزائن المال والثروة المختبئة، فوجدوا مكتبة كبيرة، وصور القاضي تزيّن الجدران، مرة يحمل شهادات ورقية، وأخرى شهادات تكريم، بحثوا كثيراً فلم يجدوا الذهب ولا المال، فعبروا عن غضبهم بحرق المكتبة المنزلية العتيقة ثم غادروا بعد أن قاموا بتحطيم الأثاث.

نزح معظم أهل المدينة النهرية وبقي (كمال حافظ) وحيداً، ذهب إلى المدارس فوجدها مغلقة، وبحث عن صديقه (أكاسا أولياي) فلم يجده، زار دار نقابة المعلمين فوجدها محترقة ومنهوبة، كان الوحيد القادر على التجول بين مجموعات المنقّبين المسلحة المتصارعة لأنه لا يعيش الواقع فهو مع ماضيه القديم، وجدته مجموعة بجانب المصرف الكبير وهو يرتدي زيه المألوف القميص الأبيض والبنطلون الأسود ورباط العنق الأحمر، ظنّوه مدير المصرف، فقبضوا عليه، ثم سألوه عن مكان المفاتيح، وكان يجيبهم ظاناً أنهم معلّمون يطلبون بعض المساعدات من النقابة، اعتبروا ردّه سخرية منهم، أو مُحاولة للتخلص من ورطته بطريقة ذكية، اقترح أحدهم قتله، ولكن الآخر قال لهم إن هذا الرجل كنز ثمين، حبسوه في سجن طرفي، يحققون معه صباح مساء، حتى هجمت عليهم مجموعة أخرى مسلحة، فأخلوا سبيله وتركوه بجانب مزرعة مهجورة كان يختبئ فيها (بلبل منجواك) الجنائني الجنوبي الذي رفض

الذهاب إلى جنوب البلاد بعد تقسيمها، فآثر أن يكون في الشمال وسط البيئة التي جاءها صغيراً مراهقاً بعد أن فقد أسرته في حرب الجنوب، تعرّف عليه بلبل وأخذه إلى مخبئه، حيث يعمل في فترات متقطعة أيام الحصاد مع صاحب هذه المزرعة، وعندما هجمت إحدى مجموعات المُنقّبين المسلحين على المقهى هرب راجلاً إلى هذا المكان، تعرّف على (كمال حافظ) فقد كان يأتي يومياً إلى المقهى لا يتحدث إلى أحد، ولكن جمعهما حب المكان والمزاج والجلسة، فنمت بينهما الألفة، و(بلبل منجواك) نفسه كان ضحية الحرب اللعينة في جنوب البلاد، كفلته أسرة نوبية في الشمال بعد نزوحه، فتعلم لغتهم، وتثقّف بثقافتهم، فهو يأكل (التاركين) طعامهم المفضل، وهو سمك مجفف مطبوخ، ثم امتهن الزراعة وتنسيق الحدائق، وظل يرعى لسنوات حديقتي المسجد والكنيسة المتجاورتين على شاطئ البلدة النهرية المنكوبة، كان المسلمون يعتبرون (بلبل منجواك) مسيحياً في طريقه للإسلام، والأقباط المسيحيون يعتبرونه مسلماً في طريقه للمسيحية، هذه الاعتقادات جعلته يؤدي معظم شعائر المسلمين والمسيحيين دون استهجان من الطرفين، ففي شهر رمضان يهيئ أمكنة الإفطار الجماعي داخل حديقة المسجد، وفي أعياد المسيحيين تجده يحمل القناديل المضيئة ويؤدي معهم شعائرهم، كان رواد المقهى القديم يمازحونه، ويقولون له عندما تموت أين ندفنك؟ في مقابر المسلمين أم المسيحيين؟ فيقول لهم ضاحكاً بسخرية وتهكم، اختاروا لي مساحة الوسط بينهما، هكذا عاش (بلبل منجواك) جنوبياً نوبياً مسيحياً مسلماً، واستوعبته البلدة النهرية بكل هذه المفارقات التي لفتت انتباه صديقي عندما زارها.

بينما كانت جماعات المُنقّبين المسلحين تمارس الفوضى والنهب والسلب في المدينة النهرية كان (بلبل منجواك) الجنوبي المتصالح مع اعتقادات وتوجهات أهالي البلدة النهرية يقدم الرعاية الصحية والغذائية لرفيقه (كمال حافظ) الغارق في التاريخ غير المستوعب لمجريات الحاضر، فظل يستيقظ كل صباح ويتخيل أنه في فصل دراسي ويعطي حصصاً في اللغة الإنجليزية لطلبة في خياله الخاص، يناديهم بأسمائهم، ويسألهم عن واجبات الدرس السابق.

بدأ (بلبل منجواك) رحلة العودة إلى الجنوب، قرر أن يصطحب معه (كمال حافظ)، واستخدم معظم أنواع النقل والسفر من قطار وسيارات وقوارب نهرية حتى قطع مسافة ألف كيلو متر عادت به إلى قريته الصغيرة(لالوقا) في جنوب البلاد، لم يستطع التعرف على الأهالي، لكنهم عرفوا الأسرة التي يتنمى لها، والتي أبادتها الحروب، أكرموه وضيفه إكراماً فاق الحدود حتى أنهم أقاموا احتفالاً بهيجاً ونحروا ثوراً بهذه المناسبة، وأهدوه مسكناً من قطاطي القش في وسط القرية الخضراء الوادعة التي تقع على شاطئ النهر الطويل القادم من عمق أفريقيا، كل مساكنها من القش المحلي المصنوع بطريقة تجعله يتفاعل إيجابياً مع الأمطار التي تهطل في معظم شهور العام، بعد فترة أنشأ مزرعة صغيرة أمام منزله

زرع فيها الباباي والمانجو والموز، وقام بتأسيس فصل لتعليم اللغة الإنجليزية يدرس فيه (كمال حافظ) للصغار دون مقابل، بعد سنوات من هذا العمل بدأت ذاكرة (كمال حافظ) تعود تدريجياً، وذات صباح وهو يهم ببدء الحصة الصباحية لتلاميذ قرية (لالوقا) تأكد أن ذاكرته عادت إليه كاملة، أصبح يتابع عبر وسائل الإعلام تطورات الأحداث في شمال البلاد، وصار يقدم الدعم والسند عبر رسائله في مواقع التواصل الاجتماعي للشباب الجدد الذين طردوا المُنقّبين المسلحين العبثيين، أصبح في فترة وجيزة نجماً من نجوم السياسة واسماً كبيراً في عالم آمال وطموحات الشباب الجدد في البلدة النهرية التي ثارت ضد الحرب العبثية، ظلّت رسائله التشجيعية مصدر إلهام للشباب ورسمت لهم خطوات عودة البلدة النهرية إلى عهدها الأول، بعد أن شعر الشباب أنهم بحاجة إلى قيادة تعرف التاريخ، وجّهوا له دعوة بالعودة، عاد هذه المرة إلى البلدة النهرية ومعه رفيقه (بلبل منجواك)، بروح الانتصار والذاكرة المتقدة، وصل ليجد حشداً من الشباب في استقباله بلافتات عليها كلماته القوية التي ظلّ يوجهها لهم عبر مواقع التواصل الاجتماعي، عاد مدير المصرف المزعوم قائداً اجتماعياً وإدارياً فنصّبه الشباب رئيساً لبلدية البلدة النهرية في عهدها الجديد، ولأنه مدرّس قدير وكان رئيساً لنقابة المعلمين، بدأ بالتعليم فعادت المدارس والمناهج التي تضع مستقبل التسامح والتعايش، وصنع أجيالاً للقيادة، وفي إحدى مأمورياته الإدارية بعد أن افتتح مشروعاً كبيراً لزراعة القطن وتصديره انقلبت السيارة التي كانت تُقلّه ووفده، مات مرافقه صاحب فكرة المشروع الجديد (بلبل منجواك) وعاد به الحادث الأليم إلى مرضه القديم، ففقد مرة أخرى ذاكرته، لكنه في تلك الفترة أعاد نسخاً جديدة من (أكاشا أولياي) و(فرانسيس عازر) و(خميس رجب)، وجاء رئيس قضاة جديد من الشباب. وذهب (كمال حافظ) مرة أخرى يبحث عن صديقه (بلبل منجواك) فلم يجده، وأصبح المقهى القديم حيث كان يجلس مكتبة ثقافية كبيرة، جلس على (الكافيه) المرفق بها، والشباب الجدد يتحلّقون حوله بإعجاب، وهو يتأملهم ويسأل هذه المرة عن تلاميذه قي قرية (لالوقا) البعيدة في الجنوب صاروا فقط هم الذين يملؤون مساحة ذاكرته.